محمد شرارة بقلم د. حسين مروة
الشيخ أحمد رضا = عبد اللطيف شرارة
الشيخ أحمد عارف الزين = شفيق الأرناؤوط
الشيخ سليمان ظاهر = د. أحمد أبو ملحم
محمد جابر آل صفا = د. محمد مخزوم
عبد المطلب الأمين = محمد علي مقلد
فؤاد جرداق = حبيب صادق

وجوه ثقافية من الجنوب

المجلس الثقافي للبنان الجنوبي



تقديم

في غضون السنتين الاخيرتين قيض للمجلس الثقافي للبنان الجنوبي ان ينشر في الناس خمسة كتب موقوفة بكاملها على قضايا تتعلق بالجنوب قبل غيره من مناطق لبنان وانحائه .

وقد توفر على انتاج هذه الكتب الخمسة فريق من اهل الاختصاص والخبرة في المواضيع التي ندبوا انفسهم للكتابة حولها سواء في ميدان التاريخ للجنوب ، او جبل عامل ، او في بقية الميادين من اقتصاد الى اجتماع فأدب وثقافة ، انما يبقى واقع الجنوب الراهن هو الهاجس الاول والاخير وراء هذا الانتاج برمته .

وفي ضوء الاراء التي ابداها المطلعون والملاحظات التي سجلوها نلاحظ ان ثمة اجماعا على تقدير هذا الجهد المتواضع من حيث كونه قد اسهم ، الى حد بعيد ، في سد الثغرة التي كثيرا ما كان يشكو منها الباحثون او طلاب الدراسات العليا وهم بصدد الكتابة حول هذا الجانب او ذاك من جوانب الحياة في الجنوب اللبناني .

وهذا القول لا يعني البتة ان المادة المطلوبة قد توافرت ولم يعد ثمة من حاجة الى المزيد . بالعكس فان الدخول في هذه التجربة اكد ، بالملموس ، كم هي حاجتنا عظيمة لمعرفة المزيد عن حياة تلك البقعة من ارضنا ولمعرفة المزيد عن حياة اهلها وشبكة علاقاتهم الواسعة والمعقدة .

من هنا يتابع المجلس الثقافي خطواته في هذا السبيل ، بدأب واصرار ، واضعا نصب عينيه خدمة هذه المنطقة في التحامها العضوي بالجسد الواحد للوطن ، ومتسلحا بالامكانات المحدودة التي لديه ومؤازرة الاصدقاء السخية من جهة وبالطموحات التي لا حدود لها من

جهـة ثانيـة .

على تلك الدرب الطويلة يخطـو المجلس اليوم خطوة اخرى فيدفـع بكتاب جديد الى ايدي الاصدقاء والامل يحدوه ان يلاقي عندهم من الاهتمام ما لاقته الكتب السابقات .

واذا كان لا بد مـن التقديم فالكتاب الجديد مرصود ، هو الآخـر ، لوجه الجنوب في عطائه الثقافي . فثمـة سبع دراسات عن سبعـة مـن وجوه الادب والفكـر ممـن استضاءت بهم سماء الجنوب ، في العقـود الماضية ، ونمت ثروته الادبيـة والفكريـة بنتاجهم الخصب المتنوع .

وهنا تجدر الاشارة الى ان هذه الدراسات السبع ، مع اخوات لها، قد وضعت ، في الاساس على شكل محاضرات قدمت من على منبر المجلس في موسمه الثقافي لعام ١٩٨٠ وتحت عنوان : « وجوه ثقافية من الجنوب » لقـد تناول هذا الفصل طائفـة مـن العلمـاء والشعراء والادباء مـن ابنـاء الجنوب بالدرس والتحليل والعرض على ان يستمر ، على النهج نفسه ، في تقديم المزيد ، في موسمه الراهن ، من الوجوه الثقافية التي اسهمت ، على هذا النحـو او ذاك ، في صنع او اغناء الحركـة الادبيـة والفكريـة داخل جبل عامل وخارج حدوده في تلـك الحقبة المضطربة من تاريخنـا الحديث .

وتنويها بهذه الخطوة يقول د/ محمد المجذوب ، مدير كليـة الحقوق والعلوم السياسيـة « تكتسب البادرة التي يقوم بهـا المجلس الثقافـي للبنان الجنوب اهميـة ومغزى ، لان المجلس ، باحيائه ذكرى بعض الوجوه الثقافيـة يذكرنـا بأن الامة التي لا تعتـز بماضيهـا لا تحفل بحاضرهـا ولا تبالـي بمستقبلهـا » .

وبعد ، فليس بوسعنـا هنا ان نضيف جديدا الى الدراسات التـي ينطوي عليهـا هذا الكتاب او ان نحاول تقديمهـا للسادة القراء ، فهي تقدم نفسهـا مباشرة ومـن غير وسيط .

ثم ليس بوسعنا ، ثانية ، ان نعرّف بالاصدقاء الذين تولـوا كتابـة هذه الدراسات اذ لا نضيف جديدا الى معرفة السادة القراء بهم جميعا . بيـد اننـا لا نرى عذرا لنـا ، بهـذا الصدد ، اذا لـم نعرب عن عميـق تقديرنـا لهؤلاء الاصدقاء على مساهماتهم الكريمة ، واذا لم نسجل لهم بالغ شكرنـا باسم المجلس الثقافي للبنان الجنوبي .

بيروت في ١٩٨١/١/٢

حبيب صادق

امين عام المجلس الثقافي للبنان الجنوبي

محمــد شرارة :

كاتبـــا وانسانـــا

بقلم : د/ حسين مروة

ـ ١ ـ

كنا ـ محمد وانا ـ توامين ، رغم اننا نختلف أما وأبا ..

كنا توامين : يحضر احدنا حيثما يحضر الآخر ، ويغيب حيثما يغيب ... هكذا كنا في النجف ، ايام جمعتنا الدراسة في جامعة النجف الاسلامية ـ الشيعية ... وهكذا كنا في الناصرية أيام جمعتنا في مدينة الناصرية، جنوب العراق، زمالة تدريس الادب العربي في ثانوية المدينة ... وهكذا كنا في مجلة « العرفان » ايام دفعت مجلة الشيخ احمد عارف الزين اولى خطواتنا نحو العمل الادبي ... وهكذا كنا في مجلة « الهاتف » النجفية ، خلال الثلاثينات والاربعينات ، ايام جمعتنا الكتابة الادبية الاسبوعية في مجلة «الهاتف» دون انقطاع ... ثم هكذا بقينا توامين ، حضورا وغيابا ، في بغداد ، سنوات الاربعينات ، سواء في حلقات الاصدقاء ، أم في المجالس والمنتديات الاجتماعية والادبية ، أم على صفحات الجرائد والمجلات هناك ... ولقد بلغ من شأن هذه العلاقة « التوامية » في اذهان القراء والعاملين في الصحف والمجلات العراقية، آنذاك ، ان يكتب احدنا المقالة لصحيفة ما فيظهر اسم الآخر منا مع المقالة بدل اسمه ، او ـ بالاقل ـ يتحرك اسم الآخر منا مع اسمه في ذاكرة

القارىء . وقد حدثت طرائف في هذا الشأن ، أتذكر منها ان مجلة « المعلم الجديد » التي كانت تصدر عن « وزارة المعارف » في ذلك العهد، نشرت مقالة لأحدنا ، فذكرت اسم محمد شرارة مع المقالة ، واسم حسين مروة فيفهرس العدد ، او العكس ...

كنا توأمين هكذا حتى في مجالات المواقف والمبادىء والمواقع الفكرية وعلاقات الدراسة والصداقة والتعامل اليومي مع الناس والحياة ...

لكن علاقة « التوامية » هذه ، لم تضعنا - قط - في سلة واحدة من « التماثل » ، بل لم تستطع حتى ان تضعنا معا في موقع واحد من « التشابه » المطلق ... فقد تكاثرت جهات التخالف بيننا ، بقدر ما تكاثرت جهات التوافق ... من هنا بقيت لكل من التوأمين «خصوصيته» المميزة . وفي سياق التخالف تبرز « الخصوصية » هذه على عدة خطوط ... اذكر منها بعض ما يحسن ذكره هنا :

- كان « محمد شرارة » محدثا بارعا وشائقا وممتعا - في حين كان حسين مروة - وهو باق حتى الآن - اسوأ من يحدث ويتحدث ...

- كان ا «محمد» صوتا عاليا رنانا لا يهدأ لحظة في اي مجلس يحضره على حين عرفت المجالس حسينا ، عكس ذلك ، هادئا في الغالب ، خافت الصوت حين يتكلم ، وقلما يتكلم ...

- كان « محمد » مرهف الذاكرة حاضرها دائما ... فهي على أهبة الاستجابة له لحظة يدعوها الى فتح خزائنها الزاخرة بألوان المعارف والوثائق ومأثور الشعر وذخائر التراث . وهو ما ان يبدأ الحديث حتى يجد الذاكرة تتدفق بكل ما يحتاج اليه موضوع الحديث من نصوص وشواهد ، مهما تكن طولا او عسرا او تعقدا ... اما توأمه الآخر «حسين» فيا لسوء ما بينه وبين الذاكرة من خصومة واغتراب حتى ايام شبابه ، فكيف الامر بينهما اذن ، وهو في ذروة السبعين ؟..

- كان « محمد » كتوأمه الآخر «حسين» يقفان من نظام الدراسة في النجف ومن جمود اهل هذا النظام ، موقفا واحدا ، هو الرفض والمجابهة دون هوادة ... لكنهما يختلفان في وجهة السلوك تعبيرا عن الرفض والمجابهة : فقد سلك « محمد » وجهة الصبر على الاحتفاظ بموقعه داخل جهاز النظام حتى تتضح عنده اسباب الخروج من هذا الموقع دفعة واحدة ، والى النهاية ... غير ان التوام الآخر ، لم يستطع الصبر هكذا الا بعد ممارسات حادة وموجعة من التجارب اعادته الى حظيرة هذا الصبر وهذا النظام مرغما ، حتى نضجت لهما اسباب

الخروج معا من دائرة السلك اللاهوتي الى المحيط الاوسع ، ليواصلا ـ معا ايضا ـ مسيرة الرفض والمجابهة على صعيد المجتمع ككل ، وعلى هدى التحليل العلمي لواقع الصراع الاجتماعي والايدلوجي داخل هذا المجتمع ذاته ..

ـ والآن أرى واحدة من « خصوصيات » التحالف بيننا ـ اراها تقف شامخة بينهن تقول لي :

ـ وكان « محمد » شاعرا ....

ـ نعم ، يا هذه ... وكان «محمد» شاعرا .. و«محمد» يكفيه خصوصية، بالقياس الى توامه الاخر، ان العلاقة بينه وبين الشعر وجدت مناخها الملائم في ذاته، اذ وجدت ، اضافة الى طاقاته الابداعية ، قصة جرح عاطفي كمنت في اعماقه، فتجذرت العلاقة هناك، ونمت نموها المعافي على مهل دون ارهاق، لان «محمدا» لم يستغرقه التعامل مع الشعر.. فلم يكن الشعر في مسيرته الادبية اكثر من صديق يسند قلبه اليه في لحظات النزف الشديد والالم او في لحظات الانتصار والفرح الغامر ... من هنا كان «محمد» في الشعر غنائيا محضا، فلم يكن يطلب ان يحقق له الشعر، سوى ان يكون قادرا، في حالات التوتر القصوى، ان يتسلل الى صوته الداخلي يحاوره ويكاشفه بنزعة رومانسية خفية، الى ان يهدأ التوتر ...

اما «توامه» الاخر (حسين) فقد حاولت العلاقة الشعرية بالحاح، ان تؤصل مناخها الملائم في ذاته، وحاول هو ايضا تأصيل هذا المناخ، غير ان المحاولة، في الحالتين، اخفقت مرارا، ونجحت مرتين فقط .. مرتين متباعدتين، زمنيا ووجدانيا، ولست ادري في اي من اعداد مجلة «العرفان» اجد المحاولتين الناجحتين .. اقصد الناجحتين نسبيا طبعا ..

كنا اذن توامين غير متماثلين، بل غير متشابهين كليا ...

ـ ٢ ـ

تعارفنا ـ محمد وانا ـ منذ مطالع العشرينات، اذ كان هو في نحو السادسة عشرة، وانا في نحو الرابعة عشرة.. وكما سبقني هو الى الحياة سنتين، سبقني الى طلب العلم في النجف سنتين او اقل قليلا، وسبقني ايضا مثل هذا الزمن الى الخروج من حظيرة اهل السلك الديني الى مجالات النشاط الاجتماعي الحر، ثم سبقني ـ واأسفاه ـ ما لا ادري من الزمن الى مغادرة العيش المادي في الحياة .. وهذا السبق الاخير كان السبق

الوحيد الذي احسست بوجعه يحفر في اعماقي حتى العظام..وهل يصدّق من يعرفني كيف انفعل للاحداث الفاجعة، انني لم استطع ـ منذ فجعت بفقده ـ ان اتحدى ذلك الوجع الشرس بدمعة، ولا بكلمة ؟..

تعارفنا اول مرة، يومذاك، في «بنت جبيل» حيث ولد «محمد» وعاش طفولته وفتوته ... تعارفنا هناك كطالبين عند والده العالم الشيخ علي شرارة، وكنا اكثر من طالبين. كنا مجموعة من الطلبة الفتيان ننتمي الى عدة اسر دينية في جبل عامل، اي اننا كنا في مرحلة الاعداد للدراسة الدينية العليا في النجف .. حينذاك كان «محمد» في عز المراهقة. لذا كان معنيا بمشاغله العاطفية الذاتية الى جانب المشاغل الدراسية المشتركة بيننا وبينه . ورغم ذلك رأيتني اكثر ارتباطا به من سائر المجموعة، وما كنت ادري ان هذا الارتباط الباكر سيجعل منا «توأمين» نحوا من نصف قرن. وحين لحقت به الى النجف، عام ١٩٢٤، كان كل وجه من وجوه الارتباط ذاك يدعونا ان نكون «توأمين» فعلا، فكنا ... اخذنا نعيش معا في مدرسة واحدة، اي في مبنى مؤسس ، كغيره من مباني عدة في النجف ، ليسكن فيه طلبة العلم الديني، واذكر ان اسمه : «مدرسة بادكوبا» وهو وقف تركي اذربيجاني، يقع في الطرف الشرقي من مدينة النجف القديمة ..

اقول : نعيش معا، بمعنى ان محمدا وانا كنا نشترك في وجبات العيش اليومي، كما نشترك في تفاصيل النشاط الدراسي :. استاذنا واحد، والمادة العلمية واحدة، والكتاب الذي ندرس به المادة العلمية واحد. نتدرّج معا هكذا من علم المنطق الى علوم البلاغة، فالى علم اصول الفقه، فالى كتب الفقه نفسه، فالى المحاضرات الفقهية خارج الكتب، وهي بمنزلة الدراسة العليا الجامعية التي تدور على الموضوعات وحدها دون الارتباط بكتاب معين، وهذه هي المرحلة الدراسية النهائية التي توصل الى مرتبة الاجتهاد الفقهي، اي المرتبة العلمية التي يفترض بها تمكين العالم من استنباط الاحكام الفقهية بناء على القواعد والادلة المقررة في علم اصول الفقه.. هذه المرحلة الاخيرة لا حدود زمنية مقررة لها ، وانما يحددها زمنيا مدى نضج الطالب من حيث قدرته على الاستخدام العلمي، اي الاستخدام الصحيح لقواعد الاستنباط، اي بلوغه درجة الاجتهاد .. فقد يطول المدى الزمني لهذا النضج، وقد يقصر، تبعا لما يتوفر من جهده ومن مخزونه المعرفي ومن قابلياته الابداعية ..

لكن، من يحدد بلوغ الطالب درجة الاجتهاد هذه، وكيف يحدد؟..

لا جواب هنا، لان التحديد ومقاييس التحديد لا تخضع لنظام ولا

قاعدة، كما انه ليس هناك من «طقوس» ولا «مراسم» .. غير ان هذا الفراغ الفوضوي قد فسح المجال لامر ذي اهمية بالغة، هو رقابة «الجماعة» او شهادة «الجماعة» .. لقد كان هذا الامر ،حتى عهدنا بالنجف، هو المصدر الاوحد لكل المقاييس والقواعد والحدود، لان رقابة «الجماعة» كما عرفناها، كانت رقابة صارمة، وحاسمة... فان عين «الجماعة» ،اي الرؤية المكونة لدى الوسط الدراسي بجملته، اساتذة وطلبة، كانت المرجع الذي لا يقبل الجدل في تمييز العالم الحق من ادعياء العلم ..

من اين وكيف تتكون هذه الرؤية ـ الشهادة ؟..

تتكون بفعل التقاليد التاريخية الايجابية لهذا الوسط الدراسي، كما عرفناه في اخريات العهد بهذه التقاليد .. فهي تقاليد تنهض اساسا على ان العلاقة بين الاستاذ والطالب ليست علاقة التلقي والاستماع، وانما هي علاقة حوار ومناقشة حتى منتهى الصراحة، ومنتهى الحرية للطالب ان يبحث موضوع الدرس خارج الكتاب المقرر، وخارج النص الراهن، وخارج رأي الاستاذ هذا اولا ... واما ثانيا، فان اللقاءات اليومية بين اهل هذا الوسط الدراسي من اساتذة وطلبة، مهما تكن دواعي اللقاءات واجواؤها، لا يمكن ان تحدث دون ان تطرح فيها مسألة ما من مسائل العلوم الداخلة في اطار المنهج الدراسي التقليدي .. وحين تنطرح المسألة لا بد ان يكون لكل من يحضر اللقاء صوت وراي وموقف .. وفي الغالب يكون السكوت حينذاك علامة العجز، لا علامة الوقار ...

اذن ، يكون من طبائع الاشياء، موضوعيا، ان لا يفلت احد من رقابة «الجماعة» المتعايشة في هذا الوسط، يوميا، تعايش اختبار وامتحان دائمين وعضويين ويكون من طبائع الاشياء، بعد، ان ادعاء العالم في هذه الحال لا يغني عن العلم، وان كلا منا في هذا الوسط، يجد في عين «الجماعة» صورته الواقعية التي ترفض الادعاء والزيف وتزين الذات بغير حق ..

حين خرج محمد شرارة من هذا الوسط الدراسي، لم يقل احد انه خرج فاشلا في تحصيل العلم، او هاربا من الفشل في التحصيل، بل العكس هو الذي كان يتردد في هذا الوسط.. اي ان الاسف لخروجه كان هو السائد، لان عين «الجماعة» كانت تعرفه جيدا بما هو صاحب صوت وراي وموقف في كل لقاء تنطرح فيه مسائل هذا العلم او ذاك من علوم المنهج التقليدي .. بل الامر يتجاوز ذلك الى التميز الواضح لصوته ورايه وموقفه حين يحتدم النقاش ... انه التميز الذي اكتسبه «محمد» من سعة

الافق الثقافي الذي كان يشق طريقه اليه في مدى عهده الطويل بالوسط الدراسي النجفي، دون ان يخضع لذلك القيد التقليدي المتزمت الذي لم يكن يسمح لطالب العلم الديني ان يتطلع بفكره ولا ببصره الى كتاب او صحيفة او معرفة او ثقافة خارج الافق الدراسي الديني نفسه، وهو الافق المرسومة حدوده بضيق شديد وبنظر الى العلم والثقافة شحيح الرؤية الى درجة انعدام الرؤية ...

- ٣ -

كان محمد شرارة في طليعة مجموعتنا المتمردة على ذلك التزمت الصارم، وهي المجموعة التي تكونت ـ عفويا ـ اواخر العشرينات ، داخل الوسط الدراسي النجفي من بضعة نفر لبنانيين وعراقيين اطلقنا عليها، انذاك، اسم «الشبيبة العاملية ـ النجفية» (١) . كان محمد في هذه المجموعة ابرزنا اقداما على خرق جدار التزمت ذاك، وابرزنا تطلعا الى التخطي العملي لذلك الافق الثقافي الضيق ولتلك الرؤية الشحيحةالقاصرة البائسة لمعنى العلم والمعرفة .. فقد اوسع «محمد» دائرة اطلاعه، خارج هذا الافق وهذه الرؤية، الى جهات عدة، لا الى جهة واحدة.. لم تقتصر دائرة اطلاعه على كتب الادب العربي القديم والمعاصر، ولا على المجلات العربية الصادرة يومئذ في مصر ولبنان وسوريا والعراق .. بل اقدم بجراءة وجسارة على فتح هذه الدائرة من طرفين : لكي يضيف اليها ـ اولا ـ قراءات جدية في كتب العلوم الانسانيه كافة لمختلف الباحثين العرب والاجانب ولمختلف التيارات الفكرية والايديولوجية .. ولكي يضيف اليها ـ ثانيا ـ معرفة احدى اللغات الاجنبية الغربية، وكانت الانكليزية هي التي تتوفر وسائل البدء بدراستها في النجف ذاتها انئذ ..

كان هذا الاقدام حافزا لنا ان نتابع مسيرة الرفض والمجابهة في الوسط النجفي على هذا النحو من المتابعة العملية الجدية المثابرة ، دون ان ندع الجانب الدراسي الديني يقع في الدائرة الثانوية من اهتمامنا اليومي، بل كان الامر بالعكس.. فقد توفرت بذلك لنا افاق معرفية اضاءت

---

(١) كان في هذه المجموعة من «العامليين» «اللبنانيين» : الشيخ محسن شرارة ، الشيخ محمد حسين الزين ، الشيخ علي الزين ، السيد هاشم الامين، محمد شرارة حسين مروة. وكان فيها من النجفيين الشعراء الثلاثة: د. عبد الرزاق محيي الدين، صالح الجعفري (ال كاشف الغطا)، محمد صالح بحر العلوم واخرون ..

امامنـــا هذا الجانب الدراسي بحيث ازددنا اصرارا على الغوص الى قراراته واستشراف ابعد ابعاده ..

– ٤ –

على ان هذه المسيرة الشيقة والشائكة في وقت واحد، رافقتهـــا ـ او بالاصح : نبعت منها ـ مسيرة اخرى جاهدة، ولكن اثمرت لنا «محمـــد شرارة» الكاتب المفكر الشاعر الانسان ..

وهنا اذكر مفارقة طريفة : هي ان استاذنا العالم الشاعر الشيخ علي شرارة، والد «محمد» حين كنا ندرس عليه في بنت جبيل مبادىء النحـــو العربي اعدادا لدراسة النجف، لم يكن يتوقع منه ـ اي من «محمد» ـ ان يكون ما كانه ـ بعد ـ في عالم الادب والعلم والفكر .. ذلك ما سبـــق ان اشرت اليه من ان «محمدا» كان حينذاك في عز المراهقة، فكانت له ـ اذن بالطبع ـ مشاغله العاطفية الذاتية، كما قلت .. لكن استاذنا الشيـــخ علي شرارة، كغيره من جيل الاباء في ذلك العهد، بنى على تلك الحالة الانسانية الطبيعية حكما شاملا وقاطعا بأنها حالة من لا يتوقع منه الفلاح!.. ورغـــم ذلك منحه تلك الفرصة العظيمة بالرحيل الى النجف، ليثبت له ان تلـــك المشاغل العاطفية الذاتية قد تتحول لهبا يفجر المواهب ويحرق الكثير من المراحل على طريق الفلاح الحق .. فكم يستحق منا، استاذنا الشيخ علـــي شرارة، تحايا الشكر الى ذكراه ان منح «محمدا» هذه الفرصة، فمنحتنـــا الفرصة هذه «محمدا» الكاتب المفكر الشاعر الانسان ..

مسيرة الكتابة التي سارها «محمد» بدأت منذ اواخـــر العشرينات.. واننا نعجب الان، بعد قطع المراحل السابقة، كيف بدانا هذه المسيرة، فـــي حين كان يبدو كل شيء في واقعنا لدى وصولنا الى النجف، عائقا وكابحـــا بـــل صارفا لنا عن هذه الوجهة نحو الوجهة النقيض؟..

ما دام الكلام على مسيرة «محمد» بخاصة، اكاد ارى ان «مشاغلـــه العاطفية الذاتية» تلك نفسها، كان لها دور هنا .. فهي لانها كانت تواجـــه، قبل الرحيل الى النجف، بشيء من القمع ولانه هو كان يواجه ذلك «الشيء» من القمع بالعناء والتصلب، بدأت تتكون في شخصيته احتمالات المواقـــف المستقلة، ومواقف التحدي حيال الواقع، اي خيال اي واقع يجد فيـــه سلطة فرض الموقف عليه من الخارج، اي من خارج ذاته، خارج اختياره... من هنا ارى ان «محمدا» قد اصطدم، بعد قليل من زمن الهجرة للنجف،

بنظام الدراسة فيها، اي بتزمت هذا النظام، بأفقه الثقافي الضيق الحدود، بنظرته القاصرة الى معنى العلم والمعرفة. فقد جاء ضغط هذا النظام عليه، ضغطا على تلك الجذور البادئة بالتكون قبل الهجرة اعني جذور العناد والتصلب والتحدي التي ولدت في شخصيته احتمالات التفرد والاستقلالية ... وقد بدات هذه الاحتمالات تتفجر عبر الصراع بين واقع النظام الضاغط الصارم، وبين الطموح الاستقلالي في اختيار الافق الثقافي دون ضغط من خارج الذات ..

هكذا كانت البداءة كما اتصور المسألة، بناء على ما اعرف من خصائص وتفاصيل كانت تحكم سلوك «محمد» في تلك المرحلة ـ بخاصة ـ من مراحل سيرته ...

ـ ٥ ـ

الكتابات الاولى في مسيرة «محمد» الادبية، كانت من وحي هذه البداية، بمعنى ان فيها من عناصر التحدي للوضع الذي يصطدم به ما جعلها حادة وحارة، لان التدخل الذاتي من داخل شخصيته كان هو المسيطر وحده في عملية التعبير الادبي ورؤية الواقع ... على ان كلمة «الواقع» هنا تحمل مدلولين متداخلين : احدهما ، يشير الى واقع النظام الدراسي والاجتماعي في وسط الجامعة النجفية، انذاك، وثانيهما، يشير الى الواقع «الخاص» او «الشخصي» الذي رحل مع «محمد» من لبنان في حقيبة «مشاغله العاطفية الذاتية» التي حومنا حولها من قبل اكثر من مرة .. وهنا وجب ان نلمس موضع الجرح في جسد هذا الواقع «الشخصي» لان ذلك سيحدد الكثير من ملامح الكتابات الاولى في مسيرته الادبية ...

اريد ان اقول ، في هذا السياق، ان تلك «المشاغل العاطفية الذاتية» لم تبق عرضا من اعراض المراهقة كما بدات .. فقد انكشف له هو ـ من بعد ـ ان ما بدأ «عرضا» تحول في ذاته الى «جوهر» اي الى قصة حب.. وهذه قصة عاشت في حياته طويلا، واعتملت داخل نسيجه العاطفي اعتمال الجرح العميق الصامت، بحيث كان لها الدور الاهم في تكوين مزاجه الشاعري الرومانسي الذي رافق مسيرته الادبية حتى النهاية، سواء في اعماله الشعرية ام في اعماله الكتابية النثرية الخالصة ..

اما الكتابات الاولى التي تحمل كل هذه الملامح الذاتية، بكل سماتها

ودلالاتها تلك، فيكاد وجودها ينحصر في اعداد مجلة «العرفان» ما بين العشرينات والثلاثينات .. وليس وقت هذا الحديث كافيا لقراءة تلك الكتابات بالنص، اضافة الى القراءة وراء النص وخلاله ...

– ٦ –

غير ان مسألة البدايات هذه لا تنسحب اثارها ومعالمها وتحليلاتها على كتاباته في المراحل اللاحقة من سيرته الادبية ..

فقد جاءت، بعد ذلك، ظروف وعوامل نضجت بها مكونات علاقة جديدة بينه وبين الواقع الدراسي والاجتماعي الذي يعايشه في ظل نظام الجامعة النجفية .. ذلك ان انطلاقه الاول من قيد هذا النظام وتحرره من اثار هذا القيد، قد حققا له طموحه الاستقلالي في الاختيار ، اذ اختار نهجه الثقافي فعلا، ولم يبق للصراع بين الواقع وطموحه سلطان عليه يتحكم بمسار العلاقة بينه وبين هذا الواقع .. لقد اصبح الحكم الان ، في امر هذه العلاقة، مبنيا على حصيلة غنية من الوان المعرفة والثقافة، المركبة المتنوعة والمتوازنة، واصبحت العلاقة بينه وبين محيطه الدراسي والاجتماعي متحررة من اثر الضغوط الداخلية – الذاتية لان تنظيما عقلانيا حل محل تلك الضغوط ... وهو – اي هذا التنظيم العقلاني – ينتسب، بمجمل مكوناته الاولى، وبطابعه العام، الى الفكر الليبرالي، وان تداخل – من جهة – مع فكر الكتاب الديمقراطيين المصريين في فترة العشرينات امثال : اسماعيل مظهر ومحمد مندور ... وتداخل – من جهة ثانية – مع فكر الوطنيين الثوريين من شعراء العراق في الفترة ذاتها، امثال الرصافي والشبيبيين : رضا وباقر، والجواهري، واحمد الصافي قبل هجرته الى سورية ولبنان ...

لكن هذا التنظيم العقلاني للعلاقة بين «محمد» وواقع المحيط نفسه، لم يكن يعني استدراجه الى المصالحة مع هذا الواقع ... فالمصالحة بمفهومها الذي يتضمن قبول الواقع، اصبحت عنده بمنزلة الردة والانحراف وخيانة الواقع ذاته .. اما التنظيم العقلاني المقصود هنا فهو الذي يعني، انذاك، ان رؤية الواقع اصبحت مضاءة بفكر ما، ولم تبق ذاتية مزاجية انفعالية .. اي ان اعراض الجمود والتزمت والقصور اصبحت مرئية في هذا الواقع على نحو يضع مسيرة الرفض والمجابهة على خط اقرب الى السداد في محاولة الهدم والتغيير ..

ضمن هذا الاطار من العلاقة مع المحيط الاجتماعي الذي كان يعايشه، واقعيا وفكريا، اواخر العشرينات وطوال الثلاثينات ـ ضمن هذا الاطار المتميز بهذا الجانب العقلاني، كانت كتاباته في المرحلة الثانية... وليس بعيدا عن الواقع ان نسميها مرحلة «الهاتف»، اي تلك المجلة الاسبوعية النجفية التي كنا نكتب كلانا لها نتاجنا الادبي كله تقريبا في الثلاثينات سواء منه ما كنا ننتجه من موقعنا داخل الوسط النجفي الديني، أم ما واصلنا انتاجه بعيد انتقالنا الى الوسط التعليمي جنوب العراق .

اما اساس التزامنا ـ محمد وانا ـ مجلة «الهاتف» بخاصة، فذلك يرتبط بموقف لنا ـ حينذاك ـ من صاحبها الاديب القاص جعفر الخليلي في معركة ادبية كنا فيها الى جانبه.. لكننا افترقنا عن صديقنا الخليلي بعد ذلك، اي مذ دخلنا في الاربعينات، وانتقلنا الى بغداد، اذ انفتحت من هناك ابواب عالم جديد من العلاقات ومن القضايا ومن الاهتمامات انتهت بنا الى خوض معركة جديدة، ادبية وفكرية وايديولوجية، تختلف نوعيا وجذريا عن المعركةالادبية التي كنا فيها الى جانب صديقناالخليلي من قبل..

ويجب ان اسجل هنا ان هذا الاختلاف النوعي والجذري بين المعركتين يصح النظر اليه كحد فاصل بين مرحلتين في سيرتنا المشتركة، هما قطبا التناقض الاساسي في كل مراحل هذه المسيرة ...

ـ ٧ ـ

وكم اشعر الان ، خصوصا، بالحاجة واللهفة الى قراءة ذلك النتاج الذي تحتويه مجلة «الهاتف» النجفية، وليس في متناولي منه هناك اية قصاصة اطلاقا ..

اشعر بهذه الحاجة الان، خصوصا، لاني انظر الى ذلك النتاج كحلقة مفقودة من حلقات هذا الحديث عن مسيرة «التوأم» الغائب الحبيب محمد شرارة .. ذلك بكونه الحلقة الضرورة ـ كما أرى ـ لاضاءة سائر حلقات الحديث هذا ... ففي رأيي ـ اعتمادا على انطباعي الثابت ـ ان نتاجنا الادبي في مرحلة «الهاتف» تلك، يمثل مرحلة بارزة متميزة في مسيرتنا الادبية المشتركة ... متميزة بنوعية كتابتنا مضمونا واسلوبا واتجاها فنيا ... فهذه الكتابة هي ـ من جهة اولى ـ تحمل علامة تطور في موضوع المعالجة، لانها تتجاوز ـ من حيث الموضوع ـ نطاق معالجاتنا قبل هذه المرحلة، بمعنى ان موضوعاتها تشتمل قضايا المجتمع في اطاره الوطني

او القومي او الكوني ، كما تشتمل هموما فكرية اوسع دائرة مما كنا ندور فيه قبل هذه المرحلة .

ومن جهة ثانية : تحمل كتاباتنا هذه في «الهاتف» اتجاها اوليا الى محاولة التخلص من نزعة «الانشائية» و «البلاغية» لكي تصبح العناصر الفنية ـ الجمالية جزءا عضويا في عملية الكتابة الادبية كعملية تكاملية ..

ومن جهة ثالثة، كنتيجة للجهتين الاوليين، تتميز كتاباتنا تلك بكونها محطة انتقالية شبه حاسمة في توجهنا الادبي والفكري. نحو منعطف قادم وحاسم .. انها محطة انتقالية تقع بين مسافتين متباعدتين من مسيرتنا المشتركة، اي بين مسافة العلاقة التي ربطتنا، على نحو من القدرية، بعالم مقفل عن عصرنا، ومسافة العلاقة التي اخترنا نحن ان تربطنا بعالمنا المعاصر، بل بأرحب افق مستقبلي للبشرية افتتحه عالمنا المعاصر ..

واعود هنا للقول ان الكلام على «التوامين» معا، في سياق اية مرحلة من مراحل مسيرتهما المشتركة، ليس يعني ـ البتة ـ انها في موقع «التماثل» ولا في موقع «التشابه» المطلق .. لذا احتاج الى ايضاح ان الملامح التي امكنني رسمها الان لنتاجنا الادبي في مرحلة مجلة «الهاتف»، انما يصح النظر اليها كملامح عامة مشتركة لهذا النتاج .. وتبقى ـ بعد ذلك ـ نقاط التخالف بين نتاج كل من «التوامين»، او نقاط «الخصوصية» المميزة لكل منهما .. وفي ذاكرتي حتى الان من نقاط «الخصوصية» هذه واحدة ربما صح النظر اليها كفارق حاسم، وهي ان كتابات احد التوامين (حسين) قامت بمعظمها ، في تلك المرحلة، على صيغة قصصية تنحو نحو السيرة الذاتية ... في حين قامت كتابات «محمد شرارة» على صيغة المقالة الفنية احيانا والبحث الاجتماعي احيانا اخرى..وهناك «خصوصية» بارزة تتميز بها كتابات «محمد» في كل مراحله، وقد اشرت اليها سابقا، واشرت الى مصدرها في حياته العاطفية ... اعني بها تلك الاطلالات الشاعرية، خلال كل كتابة يكتبها، مهما يكن موضوعها، وهي اطلالات تجيء في موكب من الصور الفنية وقد تجيء في معرض التصوير الوصفي ... ففي مقال له ـ مثلا ـ بعنوان : «الرصافي والابداع الفني» يتحدث عن دور الكلمة في التشكيل الادبي الابداعي، فيقول في هذا السياق :

«الكلمة في عالم الابداع لها وجه المراة الجميلة بما فيه من عيون فاتنة، وقدود اسيلة، وفم يفيض بالسحر، ولها قوامها الذي ينطق بالالحان ولها فوق هذا وذاك رحيق الجاذبية» (١) .

---

(١) مجلة «العرفان» العدد ٥ المجلد ٥٧ ـ ١٩٦٩ ..

وفي فصل (٢) له عن المتنبي يعالج سر العلاقة بين ابي الطيب وسيف الدولة، يصل الى احدى تجليات هذه العلاقة، لدى ارتحال الشاعر مرغما الى مصر الاخشيدي، في قصيدته الاولى هناك ... تبدأ القصيدة ــ كما تعلمون ــ بهذين البيتين :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا وحسب المنايا ان يكن امانيا
تمنيتها لمّا تمنيت ان ترى صديقا ، فأعيا ، او عدوا مداجيا

نقرأ هنا «محمدا» في سياق تحليله دلالة البيتين.. يقول :

«.. وفي هذين البيتين تنفض الغابة كل اشجارها، وترمي جميع اوراقها، لا على الارض، بل في قلب العاصفة، وتواجه الشمس والرياح والاصوات والغروب وكل ما وراء الغروب من وحشة وبريق يمعن في تضخيم الدهشة والغربة التي تكاد تطل على عالم نهليستي خال من جميع القيم اذا وقفت عندها النظرة ودارت في مدارها البائس» .

ـ ٨ ـ

اما المنعطف الحاسم في مسيرتنا المشتركة، فقد اتيناه ــ محمد وانا ــ في موعدين متقاربين، لا في موعد واحد .. ولكن الخطوات الذاهبة بنا اليه كانت متساوقة متلازمة ...

كنا في بغداد، وكانت احداث العالم الكبرى والحرب الكونية الثانية، ونهاياتها الظافرة في موازين الشعوب الطامحة الى السلام والتحرر والتقدم ... وبلادنا العربية كانت انذاك، بين ريحين متعارضتين : ريح الاستقلال الوطني يظفر به شعبنا في لبنان وسورية، وريح المؤامرة الامبريالية ــ الصهيونية تستعد لاغتصاب فلسطين وزرع اسرائيل في ارضها لغما يتفجر بوجه حركة التحرر الوطني العربية ما دام قائما هنا .. وكان نظام بغداد الملكي الرجعي يدا من الايدي التي توظفها الامبريالية العالمية، يومئذ، في حياكة المؤامرة ذاتها، وكان شعب العراق وقواه الوطنية والتقدمية والديمقراطية، في صراع رهيب مع قادة هذا النظام واجهزته القمعية الشرسة ...

في خلال هذا الجو العالمي ــ العربي ــ العراقي، كانت نقلتنا الى بغداد، فكاننا انتقلنا من عالم الى عالم.. ذلك كان في اوائل الاربعينات،

---

(٢) هذا الفصل مكتوب بخطه. ونسخته عندي ضمن مجموعة فصول كتبها عن المتنبي(ج٢).

وهي مسافة في التاريخ لا تقاس بمداها الزمني، وانما تقاس بما حفل به هذا المدى من عظيم الانتصارات البشرية ومن خطير المؤامرات على شعوب البشرية . وعلى شعوبنا العربية بخاصة ..

في ظلال هذا الجو، كان المنعطف الحاسم في مسيرتنا المشتركة ... فقد وضعتنا المسيرة هنا، ونحن لا نزال في افق البحث الجاهد عن موقعنا الفكري والايديولوجي من عالمنا الجديد . وكان للبحث طرقه ووسائله وتحليلاته المتنوعة، لكن الكتابة للصحف والمجلات البغدادية كان ابرز وجوه البحث عن موقعنا ذاك .. كنا ـ محمد وانا ـ نستهلك اكثر ساعات النهار وبعض ساعات المساء كادحين في حقل التعليم الثانوي بين اكثر من مدرسة واحدة، لكن رغم ذلك كانت الكتابة الادبية ـ الفكرية ، خبزنا اليومي الضروري ... وكانت مجلة «الحضارة» ـ وقتا ما ـ ملتقى الاسمين «التوأمين» في كل من اعدادها التي صدرت، مثلما كانت مجلة «الهاتف» في مرحلة سابقة .. وكان صاحب «الحضارة» صديقنا محمد حسن الصوري يفسح لنا حرية الكتابة كما نشعر وكما نفكر .. غير ان اجهزة النظام الرجعي القمعي هي التي ضاقت بهذه الحرية .. لذا حجبت مجلة «الحضارة» عن الصدور، وبذلك حجبت الاسمين التوأمين عن استمرار الالتقاء ـ كتابيا ـ في مجلة واحدة .. كانت تلك اول مرة يتوزع فيها الاسمان بين اكثر من صحيفة واحدة في العراق، ثم جاءت احداث وزعت الاسمين، نهائيا، بين اكثر من قطر عربي واحد ..

في ظلال الجو ذاك، وعلى هدي البحث الجاهد لتحديد موقعنا الفكري والايديولوجي، في عالمنا الجديد، اشرف كلانا على المنعطف الحاسم الذي كنا ننتظر وصولنا اليه ...

«محمد» سبقني هذه المرة ايضا، فقد وجد منافذ الصلة بالفكر الماركسي على حين كنت لا ازال مضطرب الخطى بين هذا الفكر وذاك في صراع داخلي موجع وممتع معا ..

ثم ... الذي حدث : ان جاءت المصادفة ـ المفارقة .. ففي حين كان قد وصل كل منا : محمد وانا، الى ارض المنعطف الحاسم نفسه ، اي في الوقت الذي حدد فيه كلانا الفكر الماركسي، موقعا فكريا وايديولوجيا له، بوضوح كامل وباختيار كامل ـ في هذا الوقت ذاته، كان «التوأمان»

قـد افترقا .. كان محمد شرارة لا يزال في العراق، وحسين مروة كان قد ارجع قسرا الى وطنه الاول لبنان (عام ١٩٤٩) ...

ـ ١٠ ـ

عند هذا الفاصل المفاجيء الحاد في مسيرة «التوأمين» اتجهـت المسيرة باتجاه واحد على خطين منفردين مستقلين ..

وعند هذا الفاصل ذاته يتجه حديثنا منذ اللحظة الى احـد الخطين دون الاخر .. اي سنبقى في العراق الى حين ، نتابع محمد شرارة ، فـي مسيرته الجديـدة .

بدات المسيرة هذه مرحلتها الاولى في اوائل الخمسينات .. فقـد كان النظام الملكي الرجعي القمعي يبسط ظلّه الاسود، انذاك، على المـدى العراقي الشعبي والوطني كله، وعلى القوى التقدمية والثوريـة الجذريـة بخـاصـة ..

وكان «محمد» قد اخذ يعطي موقعه بين هذه القوى حقه من النشاط بأنواعه والنشاط الفكري خصوصا .. اخذ يعطي هذا الموقع الذي اختـاره كل جهده وكل طاقاته، كل امانته ووفائه، كل مطامح الانسان الشريف المفكر الحر القائم في شخصه .. فكان لا بد اذن ان يعاني لقاء ذلك ما كان يعانـي امثاله من اضطهاد النظام ذاك.. لكن المعاناة ذاتها ليست المسألة .. وانمـا المسألة ان كيف نتعامل مع مثل هذا النمط من المعاناة .. وعلى اساس مـن هذه المسألة، بحدودها الواضحة، يصح ان نحدد اقدار المناضلين. ولدينـا العلم اليقين هنا ان «محمد شرارة» تعامل مع مختلف اشكال المعاناة تلـك باسلوبه الذي نعرف من سيرته كلها .. فقد كانت المسألة عنده ان يقهـر المعاناة، ان ينتصر عليها، ان يسخر بها دائما، حتى في اشد حالات المعانـاة قوة وشراسة .. لقد كانت المعاناة نفسها تكل وتعيى في محاولتهـا تفتيت صبره وصموده وفي محاولتها تنكيس كبريائه خصوصا .. لكنه هـو لـم يكن ليكل او يعيى من ممارسته قهر المعاناة والانتصار عليها، والسخر منها.

لقد لقي الاضطهاد اعتقالا وسجنا، وفصلا من الوظيفة وتشريدا،ولقي ذلك كله تكرارا، لكنه ظل في موقعه الفكري اولا .. وظل يعطي هذا الموقع حقه الموفور من امانته ووفائه ونشاطه ثانيا .. وظل كذلك يمارس من هذا الموقع ذاته فنون الكتابة شعرا ومقالة ودراسة في الادب والفكر والتراث.. ولقد التقينا بعد الافتراق القسري اكثر من مرة في العراق وفـي لبنـان،

وما رايته مرة واحدة قط شاكيا امره او متشائما او حزينا او عبوسا او منهزما، بل عكس كل ذلك كان دائما هو المسيطر في احاديثه وفي سلوكه وفي مشاعره وفي تفكيره .. ان الكثيرين من اصدقائه وممن كان يعاشرهم ويأنس اليهم هنا في لبنان، حين يكون هنا، لا يزالون يذكرون له هذه الصورة نفسها، بخطوطها وملامحها جميعا .. فأنا لا اراه على هذه الصورة من منظار الحب وحده، اي من منظار العلاقة التي جمعتنا، «توأمين»، زمنا طويلا .. ان صورته التي ارسم هنا، هي صورته كما يذكرها اصدقاؤه جميعا، وهي صورته كما هو في حياته اليومية، جملة وتفصيلا .. كما هو: انسانا، محدثا، شاعرا، كاتبا، ومفكرا .. اننا نقرؤه في اثاره المكتوبة فاذا هو فيها كما هو في يوميات عيشه وبيته ومجالسه الخاصة وعلاقاته الانسانية : يعالج الامر الذي يعالجه بجد صارم، لكن بنداوة ونضارة واشراقة نفس مع اشراقة كلمة وبيان .. انها شفافية طبعه ونقاوة وجدانه. انها ثقته العلمية باتجاه حركة التاريخ وبقدرة صانعي التاريخ.. وانه الفكر العلمي، اي الفكر الماركسي، الذي انصهر مع هذا الكل المتكامل من مقدمات شخصيته، فجاء هذا الكل متجانسا في ظاهرات وجوده وفعله هنا.

.. ومع كل ذلك :

ــ كان «محمد شرارة» الكاتب المفكر، ناقدا ايضا .. كان ناقدا له نظرية الناقد المنهجي، وله ممارسات الناقد الادبي التطبيقية .. ويبدو انه انصرف في سنواته الاخيرة الى هذا الجانب من نشاطه الكتابي، ويبدو ايضا انه وضع لنفسه خطة في هذا المجال ترمي الى تطبيق نظريته النقدية المعاصرة عبر نقد التراث الادبي العربي .. وقد انجز من هذه الخطة بضعة فصول عن ابي الطيب المتنبي .. وسأكون سعيدا بأن اشرف على نشر هذه الفصول في كتاب قد يمكن صدوره في مطالع العام الاتي، عام ١٩٨١ ..

اما ما سميناه بـ «نظريته النقدية» فهو يندرج في اطار المنهج النقدي الواقعي الذي يأخذ به النقاد التقدميون بوجه عام. لكن الناقد «محمد شرارة» يصوغ نظريته ضمن هذا الاطار صياغة تحمل لمحات متميزة مستمدة من «خصوصياته» ككاتب ابداعي .. فهو ــ مثلا ــ حين يضع مفهومه عن الابداع الفني يضعه بهذه الصيغة المتميزة، يقول : ان «الابداع الفني عالم

تحمل الكلمة فيه عالما، كل حرف فيه طيف من طيوف الشمس، او منظر من مناظر الرياض المتنوعة ، او ما اشبه ذلك من الاكوان التي تصبح فيها الكلمة او النغمة او اللون، نافذة مطلة على الدنيا، او زجاجة تكشف الخفايا ، وتقرب النوائي، وتكتشف النجوم المعصبة بوشاح من الظلمات .. في هذا العالم تصبح الكلمة ذات نكهة خاصة ورائحة خاصة، لا يكفيها الفهم وحده، ولا معرفة المعنى القاموسي وانما تحتاج فوق ذلك الى ذوق خاص تختلج امامه ارواح القواميس وتنحني اعناقها .. قد يكون طاغور، وناظم حكمت، وبابلو نيرودا، ومايا كوفسكي، ولوركا وامثالهم، اقل الناس تكليفا لقرائهم بمراجعة القاموس .. ولكن الكلمة في شعر هؤلاء - على تواضعهم - فيها زهو الطواويس ، وعطر الازاهير، وشعاع النجوم، وما شئت من العصير العجيب الذي تكفي قطرة واحدة منه لتبعث الحياة الى عالم النشوة»-٣-.

القراءة الاولى لهذه الصيغة توهم ان الناقد يضع منزلة الكلمة في الابداع الفني كعنصر وحيد لتشكيل الجمالية الفنية في الادب .. لكن «محمد شرارة» الناقد الواقعي يبدد هذا الوهم، بعد، فيقول :

«ولا ريب ان الشاعر الذي ينطلق من هذا العالم - يقصد عالم الكلمة- ويطل منه على الدنيا، هو الكنز الذي تلتقي فيه اروع معادن الانسانية واصفى جواهرها الخالدة .. ولكن هل يعني ذلك ان الانطلاق من هذا العالم وحده هو الذي ينصب الموازين، ويعين القيم؟.. وبجواب واضح، هو: لا. بالطبع.. فالقيم لا تنبعث من هذا العالم وحده، ولا من موازينه وحدها، وان كانت موازينه في منتهى الدقة» (٤) .

اذن هناك - في راي محمد شرارة الناقد - عالم يضاف الى عالم الكلمة كعنصر اخر في تشكيل القيم الجمالية للعمل الادبي الابداعي.. فما هو ؟ ..

نجد الجواب ذلك في دراسته شعر الرصافي مثلا .. فهو يحدد قيمة هذا الشعر بقدر ما فيه من جديد برؤيته قضايا المجتمع في عصر الرصافي، وبارتباطه - فنيا - بهذه القضايا كما يطرحها في مرحلتها العربية الخاصة.. اي ان الموقف من المجتمع هو ذلك العنصر الاخر الذي يدخل في ميزان القيم الفنية في الادب عند الناقد محمد شرارة .

وعند دراسته ظاهرة الاعتداد «بالقوة» في شعر المتنبي، يفسر هذه الظاهرة بالعودة الى مصدرها في الواقع الاجتماعي - السياسي لعصر المتنبي

(٣و٤) العرفان : ج ٤ - مجلد ٥٧ - ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ .

ذاته .. وعلى اساس من هذا التفسير المادي التاريخي يناقش عباس محمود العقاد بما يراه ـ اي العقاد ـ من العلاقة بين فلسفة القوة عند نيتشه وظاهرة الاعتداد بالقوة في شعر المتنبي ... محمد شرارة يرفض رأي العقاد هذا .. يرفضه على اساس من الفارق التاريخي الشاسع بين عصر المتنبي وعصر نيتشه، من حيث اختلاف نمط العلاقات الاجتماعية واختلاف الظاهرات والافكار التي تلدها تلك العلاقات .. مبرهنا على ذلك بأن «الايمان بالقوة النيتشوية لم يتخذ شكله الفلسفي، او لم يحاول ان يتخذ شكلا فلسفيا، الا في العصر الصناعي، وهو عصر التزاحم على امتلاك الطاقة. وفي هذا العصر اتخذ شكله العنصري الشوفيني» ويخلص «محمد» من هذا النظر العلمي الى القول : «..وفي هذه الملاحظة تصبح رؤيا العقاد ان الفكر النيتشوي مستمد من فكر المتنبي اكثر من مدهشة، ان لم تكن اكثر من مضحكة، كما يتضح ان العقاد يرى بعض القضايا الفكرية رؤيا مجردة عن الزمن او عن التطور او عن الاحداث التي تلعب دورها في التكوين الفكري » (٥) .

فنظريته النقدية، اذن رغم تميزها بخصوصية الصياغة، وخصوصية التطبيق تنتمي الى المنهج النقدي الواقعي التقدمي، وهو المنهج الذي لا يزال يحتفظ بتفرده بين التيارات النقدية المعاصرة، بالقدرة على تطوير رؤيته وادواته وممارساته التطبيقية، دون حرج ودون الخروج قيد شعرة على الاساس النظري العلمي الذي ينهض عليه ..

ـ ١٢ ـ

وبعد، فهل كان من مهمة هذا الحديث عن محمد شرارة، كاتبا وانسانا ان يستوعب كل جهاته، دراسة وتوثيقا وتحليلا؟..

ليس لـ «محمد شرارة» الغائب الانسان ضيق مساحة الوجود في دنيانا، بحيث يستكمله ويستوعبه حديث واحد كهذا الحديث ..

كان الهاجس الاعمق عندي. حين اخترت ان اتحدث عنه اليوم ، هاجسا عاطفيا محضا.. فأنا الذي لم استطع ان اطفىء وجع فقده بدمعة او بكلمة. لم استطع ان اضع نفسي في حديثي هذا عنه ، خارج العلاقة،

---

(٥) «الشاعر والعالم : فصل من الفصول التي كتبها محمد شرارة عن المتنبي بين ١٩٧٧ ـ ١٩٧٩. وهذا الفصل بخط يده عندي (ح.م) .

اي خارج تاريخ الجرح اي خارج كوننا ـ محمد وانا ـ عشنا اكثر عمرينا توأمين ثم اذا بنا، فجأة، على ضفتين يقطع ما بيننا نهر الابد ..

كان هاجسي الاول والاعمق، حين بدأت الحديث هذا عنه ان يكون الحديث لقاء معه على طول خط المسيرة النبيلة الشجاعة والخصبة التي سارها محمد شرارة بنقاء وشرف ..

.. وكان اللقاء هذا كما اردت .. وسيكون لي معه لقاء اخر على صعيد الادب والفكر وحده ..

الشيخ احمد رضـــا

بقلـــم : عبد اللطيـــف شرارة

الحديث عن رجل تعرفه يعيدك الى ماض معين من حياتك، أيا كــان بعــد هذا الماضي او قربه من حاضرك. وكان شوقي قد اوضـــح هـــذه الحقيقة فـــي قولـــه :

وامس كعـــاد وان كـــان منك قريـــب الخيـــال مُطيـــف الصـــــور

وثمة حقيقة اخرى اعقد من هذه واعسر منالا، وهـــي ان معرفـــة الاشخاص تختلف بين حال وحال، وزمان وزمان، ومكان ومكان، فقد يخيل للواحد منا انه يعرف شخصا ما، لكثرة ما راه، او سمعه، او تحدث اليـــه، او قرأ كتاباته او اطلع على اعماله، ولكنه يجد نفسه انه لم يكن يعرف ذلك الشخص معرفة تامة او دقيقة، حين يقع بين يديه مثلا كتاب او رسالـــة او اثر كان على جهل به، في حياة ذلك الشخص، وحتى خلال معرفته به!

كان اول ما عرفت العلامة المرحوم الشيخ احمد رضا فـــي مستهل الثلاثينات من هذا القرن، وكنت يومذاك تلميذا في ابتدائيـــة النبطيـــة الرسمية، وراحت معرفتي تلك تنمو مع نموي، وتزداد مـــع ازدياد سنـــي، وتتسع مع اتساع الافاق امامي، في الكتب والحياة على السواء .

وعدت في الاربعينات الى منطقة النبطيـــة ، لا الى النبطيـــة نفسها ، وفي هذه المرة كنـــت معلمـــا ابتدائيـــيا لا تلميذا ابتدائيـــا ، وكنت احضر مجالس الشيخ احمـــد رضا الادبيـــة ، واستمع الى تعليقاته ، وملاحظاته السياسية ـ الاجتماعيـــة ، وحتى لانتقاداته اللغويـــة . وكانت انطباعاتي عنه ، وانـــا اقارنه في سري بمن حوله كالشيخ سليمـــان ظاهر ، ومحمد

علي الحوماني ، والشيخ علي الزين ، انه أهدأ الناس أعصابا ، واوسعهم اطلاعا ، واكثرهم مرونة .

كان هذا هو الانطباع الذي اذكره واحمله فيءنفسي عن الشيخ احمد رضا . ثم لم يهتز ولم يتزعزع يوما من الايام ، بل كان يقوى ويشتد ويزيد رسوخا . كلما زادت معرفتي به .

تلك ناحية مهمة ، جد مهمة في كيان ذلك الوجه الثقافي من وجوه جبل عامل ، فهي على التحقيق ، سر التكامل في شخصيته ، والاساس الوطيد الذي بنيت عليه تلك الشخصية في كل ما صدر عنها من اعمال واقوال .

لقد وصف احد الروائيين المحدثين هذا النوع من الهدوء والمرونة في طباع احد ابطاله ، فقال : « كان لديه في صميم الاعصار الذي يمزق السماء ... مكان لهدوء مركزي » وحين قرات هذه الجملة ، وانا اطالع تلك الرواية ، تذكرت الشيخ احمد رضا .

اما الناحية الثانية التي أود ان اوضحها في شخصية الرجل، والتي تبدو غامضة ، وحتى خافية على اكثر الذين عرفوه وكتبوا عنه، فهي انه يمثل الى حد بعيد ، خلاصة النهضة الادبية التي عرفها لبنان في النصف الثاني من القرن الماضي ، وكأنه تتويج لتلك النهضة، بمقدار ما هو انبثاق عنها ، أو مظهر متجدد من مظاهرها .

ننتقل الآن من جبل عامل الى جبل لبنان في الربع الاخير من القرن الماضي ، حيث نجد ان المعلم بطرس البستاني قضى نحبه يوم كان الشيخ أحمد رضا في الحادية عشر من سنيه اي عام ١٨٨٣ ، وكان في الخامسة عشر يوم قضى أحمد فارس الشدياق ، وفي السابعة عشر يوم قضى الشيخ يوسف الاسير . وفي الرابعة والثلاثين يوم قضى الشيخ ابراهيم اليازجي ، وفي الاربعين يوم قضى الشيخ سعيد الشرتوني، وفي الثامنة والخمسين يوم قضى جبر ضومط ، والشيخ عبدالله البستاني .

هؤلاء جميعهم : البستاني ، والشدياق ، والاسير ، واليازجي ، والشرتوني ، وضومط ، صرفوا اهتمامهم او معظمه الى الدراسات اللغوية والمباحث التاريخية والقضايا الادبية والاجتماعية وتلك بالضبط كانت حال الشيخ احمد رضا .

نشا اذن وشب عن الطوق في هذه الاجواء اللغوية التاريخية الادبية، وكانت اسماء هؤلاء الاعلام الذين ذكرتهم تتردد على كل شفة ولسان هنا في لبنان، وفي سائر الاقطار العربية من اقصاها الى اقصاها . وحين انشا

الشيخ احمد عارف الزين مجلة «العرفان» ومطبعتها في صيدا عـام ١٩٠٩، اصبحت بعد فترة وجيزة من الزمن، ملتقى الاقلام، وبوق النهضة المتصاعدة، الى جانب «الهلال» و «المقتطف» و «المشرق» وأعادت في صيدا وجبل عامل سيرة «الجوائب» ومطبعتها اللتين كان يشرف عليهما احمد فارس الشدياق في الآستانة، عاصمة السلطنة العثمانية.

كانت تلك النهضة تهدف اكثر ما تهدف الى احياء اللغة العربية، وهذا الاحياء نفسه لم يكن الغاية القصوى التي تنتهي عندها المطامح وتقف الجهود والمساعي، وانما كان وسيلة الى ايقاظ هؤلاء النيام الذين يتكلمون العربية، وقد ران عليهم سبات دام قرابة خمسة قرون.

والواقع ان ركاكة التعبير هنا، وفي كل ارض عربية، كانت آفة تثير الاشمئزاز وتبعث على الغثيان، لانها تشير اول ما تشير الى انتشار الامية، وسيادة الجهل، وافتقاد الحس الجمالي، وغياب الانسان عن انسانيته، وانغماسه في القشور، وتحلله من كل تبعة تجاه مواطنيه.

يقول مارون عبود في كتابه « صقر لبنان » وهو يعني «الشدياق» في عرضه صورة ذلك العصر الادبية ما يلي:

« اني اذكر كما يذكر غيري ممن وقعوا على قصاصة من ذاك الانشاء الديواني تلك العبارة التي كان يكتبها المحقق العدلي: الضارب فرّ هاربا ولم عاد صار القاء القبض عليه ».

وينقل من كتاب عربي ترجمه قبل اكثر من مائتي سنة شخص يبدو انه مغمور، ترجمه عن الايطالية، وهذا نموذج من بيانه العربي: « اعلم اننا قبل ان نشرع عما قاصدينه في هذا الكتاب يجب ان نخبر المطالعين والسامعين بأنا، ولو أطلنا الشرح باسهاب كلّي لكي يفهم جيدا مبدأ الشريعة وحسن نظامها... بما انه واجب ان ترتشد به جميع الشعوب فمع ذلك نقول: انه ليس بضروري لهم علم كل ما نشرحه لكمال الزام الشريعة ولنيل المجد الابدي، بل يكفي لكل منهم ان يعرف على مقدار زكاوة عقله! »

أيها السيدات والسادة:

لم يكن من المعقول، ولا من المقبول بحال، ان يستمر ذلك الوضع الركيك، بكل معاني الركاكة في التعبير، والتفكير، والذوق والاخلاق، والعادات، والتقاليد. وذلك هو السر الحقيقي الكامن وراء اندفاع المنوّرين من ابناء ذلك الجيل في دراسة اللغة، والعناية بالنحو والصرف، وتأليف المعاجم والقواميس، والتشدد في ضبط

الالسنة ، وحملها على التقيد بقواعد البلاغة والفصاحة .

غير أن المنوّرين كانوا يصطدمون والاوضاع السائدة في المجتمع، ولا يملكون وحدهم ان يقاوموا تلك الركاكة في كل منحى واتجاه ، فان مثل تلك المقاومة تفرض ، أول ما تفرض ، ايجاد المدارس الكافية للقضاء على الامية ، ثم تدريب المعلمين الاكفاء الذين يحسنون التعبير والتفكير والتدريس ، ثم توفير الوسائل الصحية اللازمة في البيت والمدرسة والمجتمع لصون الابدان والعقول من مختلف الامراض والآفات ، واخيرا تأمين المناخ السياسي الذي يكفل الحريات ، ويضمن الحقوق ، ويدرأ عوادي الفساد والانحلال والاجرام .

وهكذا ، نعم هكذا! ... نفهم كيف ان رجلا كان معنيا باللغة ، والصرف ، والنحو ، والانشاء ، والشعر مثل الشيخ احمد رضا يعمد الى انشاء مدرسة في النبطية ورعاية القسم الاكبر من شؤونها، ويسعى الى تأليف جمعية لعلماء الدين في جبل عامل يتولى امانة الصندوق في تنظيمها ، ويتصل بكبار العاملين في هذه الحقول من معاصريه مثل الامير شكيب ارسلان ، والشيخ ابراهيم المنذر ، والشيخ عبدالقادر المغربي ، وغيرهم من اعضاء المجامع العلمية في دمشق ، والقاهرة وبغداد ، ويضطر اخيرا الى خوض غمار السياسة في تلك الايام الحالكة ، ويبلغ من تورطه فيها درجة تدني عنقه من حبل المشنقة . كل ذلك لانه أراد ان يخلص من ركاكة التعبير التي قدّم لنا مارون عبود نماذج منها !

ولم تكن الحال في جبل لبنان أحسن مما كانت في جبل عامل ،اذا نحن استثنينا قضية المدارس ، اذ كان التنافس بين المذاهب المسيحية هناك ، وبين البروتستانت والكاثوليك خاصة ، على اكتساب المؤيدين ، يحمل الاطراف المتنافسة على انشاء المدارس ، وتعزيز المعاهد والمؤسسات الثقافية كالمطابع ، والصحف ، والاندية ، والجمعيات الرياضية والخطابية مما افضى الى تكوين جيل جديد يتمتع بقسط وافر من المعلومات اللغوية والتاريخية والادبية .

الا ان الآفة الكبرى التي كان يعاني منها ذلك العصر أمرّ المعاناة، واحفلها بالآلام والاوصاب والكوارث ، انما كانت في ذلك المناخ السياسي العام الذي نشأ مع انكسار فرنسا عام ١٨٧٠ ، وارتقاء المانيا سدة الصدارة في الشؤون الدولية ، اذ راحت تتجه بعد انتصارها في الربع الاخير من القرن الماضي ، نحو اعادة الامبراطورية الجرمانية التي كانت

قائمة قبل اكثر من عشرة قرون سلفت ، وكانت لهـا صفة « القداسة » في القـرون الوسطـى .

ذلك بأن الفكـر الذي كان يهيمـن على المانيـا ذلـك الزمن ويوجه مجتمعها ، ويصرّف قادتها ، ذو منحى عنصري ، ونزعة استعلائيـة نجده اكثر مـا نجده لدى نيتشه وتلامذته ومريديه . وكـان كل مـا احدثـه نيتشه في عالم الفكر والاخلاق ينحصر او يكـاد في شـيء واحـد : ارادة القوة ، وحيازة القوة ، والعمل بمـا يقتضيه الابقاء على القوة .

ويشاء سوء الطالع او المصادفـة او طبيعـة الاشياء ـ وذلك هـو الاصح ـ ان تنجرف السلطنـة العثمانيـة في تيار المانيا ، وتتأثر بفكرها، ثم يؤول بهـا هذا التأثر الى اصطناع اساليبهـا في الحكم والادارةوالتعامل مع الشعـوب الاخرى ، دون ان يكـون لديهـا في ذلـك الزمن ، شيء من تماسك المانيـا وقدراتهـا العلميـة والصناعية والعسكريـة .

هذا التخبط الفكري المفجع الذي منيت به السلطنة العثمانية ، راح يتشعب ويتوسـع ويتغلغل في مختلف نواحي حياتها ، وغدا مع الايـام تخبطـا سياسيـا واقتصاديـا واجتماعيـا وثقافيـا في آن واحـد، لدرجـة انهـا سيقت الى خوض الحرب العالميـة الاولى انحيـازا منهـا لالمانيـا دون الالتفات الى مصالحهـا ، ومستقبلهـا ، ومكانهـا مـن هذا الصراع .

ثم كـان من نتائج ذلـك التخبط العثماني الشامل ، ما شهدتـه بلادنـا العربيـة ، ولبنـان في مقدمتهـا ، مـن كوارث ومـآس وفواجع لا حصر لهـا . وكـان لجبل عامل السهم الاوفـر من تلـك الفواجـع والكوارث ، مما لا يزال يذكره المنوّرون وغير المنوريـن منا ، على نحو مـا سمعتم من الاشخاص الذيـن حدثوكم عـن ذكرياتهم في الاسابيع القليلـة الماضيـة .

كان شيخنا يوم وقع الانقلاب العثماني عـام ١٩٠٨ فـي السادسـة والثلاثين من سنيـه ، ويبدو انه ادرك بثاقب نظـره هذا مصـداق لمـا بينت في بدايـة هذا الحديث عـن هدوئه ومرونته ـ ان ذلـكالانقلاب ليس في مصلحـة العرب ، ولا هـو في مصلحـة تركيـا نفسها ، مع انه لقي فرحـا غامرا ، وابتهاجا وهاجا في معظم الاوساط آنذاك .

هاك ما يقوله شيخنـا في تأبيـن المغفور له الامير شكيب ارسـلان « ... كنت على اثر الانقلاب العثماني ، واستيلاء الاتحاديين على سياسة الامبراطوريـة العثمانيـة وتوجيههم لهـا نحـو الجهـة العنصرية التركية،

ونفور العرب من هذا الاتجاه ، قد تحدثت معه (اي مع الامير شكيب) عن هذه الحال وما تؤول اليه ، فكان شديد التطير ، ومن جملة ما قال : ان هذه السياسة ، وهذا التفرق ما بين العرب والترك ... سيجلب الضرر على الامة العربية بانفصالها التام عن الاتراك ، وذلك أقصى اماني الاجانب المستعمرين الطامعين في تحطيم الاسلام والمسلمين، وسترون بعد هذا من آلام الاستعمار الاجنبي ما لا يطاق » . (انتهى كلام الشيخ احمد) .

ها هي مباديء العمل تتضح اتضاحا تاما في ذهن الشيخ احمد، ولم يبق امامه سوى التطبيق ، ويمكن تلخيص تلك المباديء كما يلي:

١) محاربة الجهل على كل صعيد، والتزود باكبر قدر ممكن من المعرفة.

٢) تهذيب السنة العرب والحيلولة دون سقوطها في هاوية الركاكة والابتذال .

٣) الدفاع عن الحقيقة ، في اللغة ، في التاريخ ، في الادب ، في الدين ، في المجتمع .

٤) مقاومة الاتجاهات العنصرية ، والعنعنات التي تمسخ الانسان وتشوه الحقائق .

٥) الجهاد لتحقيق وحدة الاسلام والمسلمين .

لم تكن هذه المباديء في ذلك الزمن ، كما تبدو لنا اليوم ، اي من الوضوح بمنزلة تبلغ حدّ الاشراق ، وانما كانت تلاقي من يجادل فيها، ويأبى اقرارها والاخذ بها ، ويعمل على مقاومتها حتى من الناحية النظرية الخالصة . والذين كانوا يجادلون فيها هم الذين يحسبون ان تفشي الجهالة في المجتمعات العربية مثلا ، يؤمّن لهم السيادة عليها ، ويصون مقاماتهم ، ويحفظ امتيازاتهم ، فلا داعي اذن لانشاء المدارس ، ولا معنى للاهتمام بالعامة وتهذيب السنتها !

واذا كان هذا هو الموقف النظري الذي كانت تتخذه سلطات ذلك الزمان من محاربة الجهل ، ومن بقية المباديء التي اعتنقها شيخنا ومضى في تطبيقها ، فكيف يكون موقفها العملي ؟

هنا ، يجب ان نتذكر ـ ايها السيدات والسادة ـ ان جيل الشيخ احمد رضا تفتّح اول ما تفتح على دنيا هي الظلم ، وهي الظلام : السلطان فيها عبدالحميد الثاني الطاغية الشهير ، وامور الناس واعراضهم واموالهم بأيدي اعوانه من الارذال والجواسيس والمرتشين والاقطاعيين الذين لا يتورعون عن جريمة مهما عظمت ، ولا يخشون

عقوبة على اذى يلحقونه بانسان ايا كان ، وجمهرة الشعب رازحة تحت كوابيس الفقر والتعصب البغيض ، والخرافات ، والجمود الروحي والفكري . وأبناء العربية من كل صقع ، تائهون في مجاهل وادغال مخوفة من السياسات المحلية الضيقة والعنعنات البالية المهترئة، ودول اوروبا في الخارج تتوثب مجتمعة ومنفردة ، للانقضاض على الرجل المريض آنذاك - وهو السلطنة العثمانية - لتتناهب فيما بينها تركته ، وتتوزع مناطق النفوذ في العالم ، ولا همّ لها سوى التوسع بقوة الحراب فوق اكبر رقعة ممكنة من اديم الارض ، والمجتمعات هنا ، وفي كل مكان تحيا بلا حياة ، وتموت بلا هدف،شأن السوائم بلا راع ولا مرشد أمين .

ذلك هو الموقف العملي الذي اتخذته سلطات ذلك الزمان وتلك هي نتائجه في آن واحد ، ولم يكن ليفصل بين الانقلاب العثماني واول حرب عالمية كبرى سوى ست سنوات ، والنتيجة واحدة : انهيار السلطنة ، وانكسار المانيا ، وعودة الصدارة في الشؤون الدولية لبريطانيا وفرنسا .

هناك مذكرات مخطوطة كتبها شيخنا عن تلك الفترة ، فترة الحرب العالمية الاولى ، تحدث بها عن رفاقه : رياض الصلح ، وعبد الكريم الخليل ، وابناء المحمصاني ، وغيرهم ممن زجّهم جمال باشا في السجن ، في عاليه ، تمهيدا لمحاكمتهم ، وهم الذين رفضوا العنصرية التركية ، فأعدم منهم من أعدم ، ونجا من نجا .

غير ان الذين افلتوا من مشانق تركيا ، ومنهم الشيخ احمد ، حلّت بهم نكبة لا تقل عن سابقتها الا وهي « العنصرية التمدينية » ذات الرأسين : الانكليز والفرنسيين ، اذ حسب فرنسيو ذلك العهد ، ردّا منهم على المانيا وتركيا ، أنهم انما قدموا الى هذه الديار المتوحشة ليمدّنوا ابناءها لا اقل ولا اكثر ، وهم لم يفعلوا ذلك الا قياما بمهمة انتدبتهم لها عصبة الامم ، ثم لم يحدثونا ، او انهم نسوا ان يحدثونا ،كيف ذهبوا الى الجزائر ، ومن بعدها الى تونس ، ومن بعد تونس الى مراكش يومذاك وهي المغرب اليوم ، وما هي المهمات التي فرض عليهم ان يؤدوها قبلا في تلك البلاد ومن هي الهيئة الدولية التي فرضت عليهم اداءها ؟!

واذا كان الفرنسيون - واعني بعضهم لا كلّهم - قد غفلوا عن تاريخهم ذاك ، او اغفلوه عمدا ، فان المنوّرين في ديارنا ، وفي فرنسا نفسها،

لم يغفلوا عن الحقيقة ، ولا انخدعوا بعصبة الامم ، ولا ببنود الرئيس الاميركي وودرو ويلسن الاربعة عشر ، بل انه ان تخدعهم مهمات التمدين !

هكذا ... وعلى هذا النحو ، بدا الصراع من جديد ، بين الوطنيين في هذه البلاد وغيرها ، «الممدنين» القادمين من اوروبا على اختلاف اسمائهم ، وعناوينهم ، والسنتهم .

الا ان الشيخ احمد التزم هذه المرة جانب الحذر في ممارسة السياسة ، وانصرف منذ العام ١٩٢٠ الى متابعة دراساته اللغوية ، واعماله التجارية ، ومباحثه الفكرية ، محتفظا في الوقت نفسه بمواقفه الوطنية وعلاقاته السابقة ، راسخ القدم في التشبث بمبادئه الخمسة التي بيّنتها قبل قليل .

وفي ذلك العام ـ ١٩٢٠ ـ انتخب عضوا مراسلا في المجمع العلمي العربي بدمشق وكان اختياره ذاك مستندا الى دراسات تاريخية وفكرية قيّمة لا املك ان اتحدث عنها بالتفصيل ، ولكني اشير الى ثلاث منها : الاولى نشرت في « المقتطف » عام ١٩١٠ في عدة مقالات بعنوان « المتاولة او الشيعة في جبل عامل » ، وقد احدثت صدى بعيدا يومذاك، وتناولها الباحثون والمؤرخون بالتعليق ، منهم ثقة الاسلام علي بن موسى التبريزي ، واثبتها الامير شكيب ارسلان في كتابه « حاضر العالم الاسلامي » ، وكان من أثرها ان تغيّرت الى حد كبير نظرة المثقفين والدارسين الى هذه الفئة التي يطلق عليها اسم « المتاولة » في مختلف انحاء العالم الاسلامي.

اما دراسته الثانية ، فقد تناولت موضوعا فكريا دقيقا هو « التقيّة في الاسلام » ونشرت في المجلد الثالث من « العرفان » اي سنة ١٩١١ على مدى اربعة اجزاء ، وليست التقية هذه كفكرة وكعمل سوى أسلوب تتبعه المقاومة ، اية مقاومة ، في كتمان امرها ، اتقاء للاعداء الذين يتعقبونها ويريدون القضاء عليها . فالذين كانوا يحاربون موسوليني في ايطاليا مثلا عملوا بمبدا التقية ، وانصار ديغول داخل فرنسا في عهد فيشي وحكومة الماريشال بيتان عمدوا الى التقيّة، وهذا هو الاسلوب الذي اتبعه انصار آل البيت من الشيعة وغير الشيعة بعد مصرع الامام الحسين ، ثم في ظل السلطة العباسية من بعد ، في بغداد وغير بغداد .

ونأتي الى الدراسة الثالثة ، وهي من اطرف الدراسات واحفلها

بالجهد والجلد، واكثرها الحاحا على المتابعة ، الا وهي « رد العامي الى الفصيح » ، وقد صدرت في كتاب عام ١٩٥٢ ، عن دار العرفان ، وقدّم لها الشيخ سليمان ظاهر ، وبيّن في مقدمته هذه ان الشيخ احمد كان « يأخذ الكلمات العامية عن العوام كما يلفظونها في موارد استعمالها، في مرافق حياتهم بمختلف صناعاتها وحرفها ، فكان يسأل ولا يمل من السؤال كل ذي حرفة عن ادواتها ولا يستنكف من ذلك ، ويقيّدها ثم يعرضها على امهات الكتب اللغوية كلسان العرب والتاج، والمخصص وسواها ، فيخرج بنتيجة صحة عربية حملها ببحث فيه الدقة والعمق ، مؤيد بالبرهان ، معزّز بالشواهد ، ولم يكد يغفل شيئا مما يدور على السنة العامة في ديار الشام ، وبعض ما انتهى اليه علمه مما يدور على ألسنة الاقطار العربية الاخرى .. » (انتهى كلام الشيخ سليمان) .

هذا هو بالضبط ما يسمونه اليوم في الجامعات ، وفي الحلقات العلمية « دراسة ميدانية » .

تصوّروا شيخا معمما يطوف على الحدادين والنجارين والبنائين والندافين والاسكافيين والسمكريين ، وسائر اصحاب الحرف ليسألهم عن ادوات اعمالهم ، ويتأمل طرائق تعبيرهم والفاظهم فيسجّل ملاحظاته، ويستنطق القواميس من بعد ، ليعرف ماضي تلك التعبيرات والالفاظ .. اليس في ذلك من الطرافة ما يثير الدهشة ؟. ولكن ذلك هو العلم، والاخلاص للعلم ، وذلك هو الوفاء للاجداد ولسان الاجداد !

واذا انتم تمثلتم ذلك وما يقتضيه من جهد وجلد ، يصبح من السهل تبيّن الدقة في الرسالة التي وجهها اليه رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهذا بعض ما جاء فيها : « كتابي اليكم والمجمع في جلسته الثمانين المنعقدة لاثني عشر يوما خلت من شهر تشرين الاول سنة عشرين وتسعماية وألف ، قد قرّر انتخابكم عضو شرف لما يعهد فيكم من الكتابة في العلم، والتمكن من آداب اللغة العربية التي نعدكم من فرسانها لما قمتم به من الخدمات الجلى بلسانها ، ولذلك يرجو مجمعنا هذا الصغير بأعماله اليوم ، الكبير بآماله ، ان يصل بكم حبله، ويشد بمعاضدتكم عضده ... »

وكان هذا التقدير من جانب اعضاء المجمع الدمشقي ، حافزا لشيخنا على متابعة الجهد ، فوضع مجموعة ابحاث لغوية صدرت بعنوان «مولد اللغة » وكانت من بعد مقدمة لمعجمه الكبير « متن اللغة » ، وقد سبقتها

« رسالة الخط » وهي من انفس المباحث ، واحفلها بالفوائد .

ها نحن نصل الى اهم اثر من آثاره ، اعني الى المعجم الذي استغرق من وقته قرابة عشرين عاما ، وكان المجمع العلمي العربي قد انتدبه لوضعه ، على ان يضم بين دفتيه الكلمات المستحدثة للاشياء المستحدثة في شتى فروع المعرفة . وهنا نجده ايضا يدرس المقادير عند العرب مما لا نعثر عليه في ايّ من المعاجم، قديمة كانت ام حديثة.

نجده يحدثنا عن وحدة الثقل « الحبة » . ووحدة المقاييس « الذراع » ووحدة المكاييل « المد » ، ثم عن الدرهم والمثقال الشرعيين ، والاقة ، والرطل ، والقيراط ، والقمحة .

هذه المقادير القديمة التي ظلّت قيد الاستعمال حتى اواخر الدولة العثمانية أهملت من بعد ، وحل محلها الكيلو والغرام في الاوزان ، والمتر في المقاييس ، والليتر في المكاييل . وهنا تجد ، اي في الجزء الاول من هذا المعجم، معجم « متن اللغة » جداول مفصلة للمقاييس والاوزان والمكاييل وما يقابلها او يوازيها من الوحدات الحديثة في المتر واجزائه او اضعافه وفي الغرام واجزائه او اضعافه ، وبذلك تعرف مثلا، وربما لاول مرة في حياتك ، ان النقير يساوي جزءا من مليون و٩٣٠الف من الغرام ، ويتضح لديك الوصف الذي يصف به العرب الفقير حين يقولون انه « لا يملك شروى تغير » كما يتضح لديك الفرسخ، والصاع، والاوقية، الى آخر ما هنالك من اشياء تقع عليها في مؤلفات الاقدمين، ولا يدرك المحدثون منها شيئا .

تلك اولى المزايا الفائقة التي يتفرد بها « متن اللغة » ، والمزية الثانية ان مؤلفه وضع بيانا بالكلمات الطارئة التي أقرتها مجامع اللغة ، او استحدثها العلماء امثال الاب انستاس الكرملي واحمد تيمور والشيخ احمد رضا نفسه ، وقد جمعها فبلغ عددها ٧٥٨ كلمة .

اما الميزة الثالثة والاخيرة التي تجعل هذا القاموس فريدا في قيمته، عظيما في نفعه، فهي انه خلاصة نحو من ثلاثين تجربة مهمة في هذا النوع من التاليف ، وهي التجارب التي بدات في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة على يد الفرا هيدي صاحب « كتاب العين»، والتي يتابعها اليوم العلامة الشيخ عبدالله العلايلي ، وكان علامتنا هذا قد اثنى على معجم « متن اللغة » ، يوم كان مخطوطة في ادراج مؤلفه ، اذ اطلع عليه قبل ان ينشر ، وكتب عنه، في مجلة «الاديب» .

وكان الشيخ احمد قد فكر في طلبة المدارس ، بعد ان فرغ من معجمه المطوّل ، ووضع لهم ملخصين : « الوسيط في متن اللغة » و« الموجز » يعمل الآن نجله الدكتور نزار على تنسيقهما واظهارهما ، كما يعمل في الوقت نفسه على نشر كتاب كان والده قد سمّاه « التذكرة في الاسماء المنتخبة للمعاني المستحدثة » .

بقي عليّ ان احدثكم ـ ايها السيدات والسادة ! ـ عن جانب آخر من شخصية الشيخ احمد ، وهو « شاعريته » ، هذه الشاعرية التي طغت عليها جهوده المعروفة في الادب والتاريخ والفكر واللغة، وطمستها الى حد بعيد او كادت تطمسها . ثم لا يصح ان ننسى ايضا ان شيخنا كان يمارس التجارة مع ذلك كله ، وكانت تجارته تستغرق قسما كبيرا من وقته ، فقد اطلعت على ترجمة لحياته بقلمه ، أنقل لكم منها هذه الفقرة : « ولدت في النبطية ضحى يوم الاربعاء لثلاثة ايام بقيت من ربيع الاول الانور سنة ١٢٩٨ هـ . وهو اليوم الرابع من شهر حزيران سنة ١٨٧٢ . . » وينهي هذه الترجمة بقوله : « ... وحين وقفت مدرسة السيد حسن بن يوسف سنة ١٣٢٠ هـ . انصرفت الى التجارة . »

ولكن هذا التاجر ، العالم ، المفكر ، المؤرخ ، اللغوي كان شاعرا ايضا ، واغرب ما في شاعريته انها كانت تقتصر عفويا ، ومن تلقاء ذاتها على الجوانب العاطفية الخالصة من تجاربه النفسية ، بمعنى ان وجدانه لم يكن ينصرف الى الشعر او الى التفكير في نظم الشعر الا تلبية لحالة وجدانية تستلزم بطبيعتها ان تمتزج الكلمات بالموسيقى وان يرافق النغم الداخلي حديث الذات عن ذاتها ، فلا نجد لديه كمعاصريه من الشعراء امثال الشيخ عبدالحسين صادق في جبل عامل والشيخ محمد رضا الشبيبي في العراق ، لا نجد له قصائد في الوصف مثلا، او في الغزل ، او في سائر الموضوعات الشعرية المتداولة في ايامه الا على وجه الندرة .

هناك تجربتان قاسيتان في حياته : الاولى تلك الغربة الروحية التي كان يعانيها في ذلك المناخ الاجتماعي السياسي الذي وصفناه آنفا ، وكان يشكوه في معظم اشعاره ، بل كلها تقريبا :

تمرست بالايام حتى خبرتها
فلم ارها ترعى لذي شرف عهدا

وقلبت ابنـاء الزمـان فلم اجـد
خليلا اصافيه ، فيصفـي لـى الود[٣]

وهـو لا يشكـو من فاقـة ، او من علة ، او من وضع خاص :

ولكنــه حب لقومــي غذيتــه
وسار مسار الروح في الـدم واللحم
يسوقهـم للـذل سوقـا رعاتهم
الا ارفق بمن ترعاه يا راعـي البهـم !
تسابق في استرقاقهم زعمـاؤهم
شفـاء لغيظ ، او وصولا الى غنـم

اما التجربة الثانية ، وكانت في الذروة من الشدّة والقساوة ، فهي وفاة اكبـر ابنائه الدكتور محمد علي عام ١٩٤٨ ، اذ انهارت بهذه الفاجعة آمالـه ، وازداد معهـا شعوره بالغربة ، فراح يرثيه ، ولا يجـد من عزاء الا في تذكره والبكاء عليه :

واليـوم مذ هاض الزمـان جوانحي
ورمى مجامـع شملنـا بشتـات
حال الربيـع بناظـري وتحوّلـت
انوار أيامــي الـى ظلمـات
هيهـات ان يشفي جراحي بعدما
قد غيبوا رهـن الضريـح أساتـي .

ثم اضيفت الى هذه النكبة الخاصة ، نكبة العرب عامة بفلسطين ، في تلـك السنـة نفسها ، وقد عاش بعدهـا خمس سنوات قضاها فـي وحشة واكتئاب وهـو يشهـد المباديء التي جاهد في سبيلهـا تلاقـي الضربة تلو الضربة من اعدائها واعدائه على السواء ، ولم يستطع ان يتحمل اكثر مما تحمل، فرزح وهـو في الواحـدة والثمانيـن من سنيه ، بيـد انه ظل ، بعد وفاته ، علمـا من أعلام العروبة والاسلام ، في هذا القرن .

ذلك بأن سيرته وحدها ، وما تنطوي عليه من مبـاديء ، وجهـاد، وشموخ ، ووطنية واخلاص للعلم ، تؤلف أعظم اثر في حياة وطنه ، وأمته، ومجتمعه ، يضاف الى آثاره الادبيـة والفكريـة واللغويـة ، وتشكـل للاجيال الحاضرة والمقبلة احسن قدوة ، واعظم اسوة .

اديب مجـــاهـــد

ومجلـة رائـدة !

بقلم : شفيق الارناؤوط

وجوه الجنوب الثقافية تبرز من خلال عصور ثلاثـة : تركية وفرنسية واستقلالية، جرت فيها وقائع واحداث تاريخية عاصفة، لعب فيها الجنوب دوراً قوميا ووطنيا مؤثرا، وصل لبنان بحركات التحرر والاستقلال فـي الوطن العربي وصلا وثيقا.

ولعل الدور الراهن من اهم الادوار التاريخية الحديثة التي اداهـا الجنوب، وما زال يؤديها دفاعا عن قضية العرب الاولى : قضيـة فلسطين، وذلك بصموده وتضحياته اليومية، ومساهمته الفذة في الثورة الفلسطينية منذ نشأتها، بالمال والسلاح والارواح !

فالدور القومي لم يكن منفصلا قط عن الدور الثقافـي . وتلـك هي ميزة الحركة الثقافية التي ارتبطت ـ في الجنوب ـ بالحركة الوطنيـة ارتباطا عضويا. فقلما وجدت اديبا او شاعرا او عالما او مثقفا او صحفيـا في الجنوب لم يتأثر ولم يؤثر في الكفاح من اجل التحرير والوحدة. وفي هذا الميدان تبرز اسماء كثيرة من مستهل القرن العشرين حتى اليوم، وان كانت فترة الثلاثينيات احفل بالنشاط الثقافي الوطني واشمل.

و«الجنوب» مصطلح جغرافي انتشر ترديده في ايام الانتداب الفرنسي

اثــر اعلان الجنرال غورو، المندوب السامي الفرنسي سنة ١٩٢٠، انشاء «دولة لبنان الكبير» من بيروت ومتصرفية جبل لبنان القديمة، وقضائـي صور وصيدا جنوبا، ومتصرفية طرابلس شمالا، وأقضية بعلبك والبقـاع وحاصبيا وراشيا غربا. وكانت صور وصيدا وطرابلس من أجزاء ولايـة بيروت القديمة في عهد الاتراك .

لذلك كان جبل عامل أولى بالتسمية من الجنوب، لا استنادا الـى الجذور التاريخية للتسمية بل نظرا لدلالتها السياسية والوطنية والعلمية والادبية، فجبل عامل، في التاريخ، يمتد من نهر الاولي شمالا، فتدخل فيه مدينة صيدا، وينتهي في الجنوب عند بحيرة الحولة. وقد التحمت صيدا بجبل عامل في الحركات الوطنية اولا، ثم في الحركات الادبية والثقافية. ولن نعود في هذه المحاضرة الموجزة الى التاريخ السحيق لاستعراض تلـك الحركات، بل سنحاول ابرازها من خلال اديب مجاهد ومجلة رائـــدة، محركا العهود التركية والفرنسية والاستقلالية بيقظة وشجاعة والفـــة، فتركا بصماتهما على صيدا وجبل عامل، ثم على سائر الوطن العربي مـدة نصف قرن. عنيت بهما الشيخ احمد عارف الزين ومجلته «العرفان» .



ولد الشيخ احمد عارف الزين في شحور من اعمال صور سنة ١٨٨٣ وتلقى علومه الدينية والمدنية في القرية وفي النبطية، ثم درس اللغـــات الاجنبية، ولا سيما الفرنسية، على بعض الاساتذة .

وفي العام ١٩٠٤ اقام في صيدا حيث بدأ حياته الصحفية والادبية والسياسية في سن مبكرة بمراسلة اكبر الصحف المنتشرة فـــي العهـد العثماني ، وهي :

١ ــ «حديقة الاخبار» لصاحبها خليل الخوري من الشويفـــات ، انشأها سنة ١٨٥٨ فكانت اول جريدة عربية تصدر برخصة رسمية مـــن قبل الحكومة العثمانية خارجا عن عاصمة السلطنة .

٢ ــ «ثمرات الفنون» الاسبوعية السياسية العلميـة الادبية التـــي انشأها سنة ١٨٧٥ ادباء المسلمين وعلماؤهم في بيروت، وكـانت اولـى الصحف الاسلامية في بيروت، فوض تحريرها الى عبد القادر القباني .

٣ ــ جريدة «الاتحاد العثماني» في بيروت ايضا لصاحبها الشيخ أحمد حسن طبارة .

وفي ذلك يقول الشيخ عارف في المجلد التاسع والثلاثيـــن مـــن

«عرفانه» العدد من ربيع الاول الى ذي الحجة ١٣٧١ و ١٩٥٢ تحت عنوان «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» ما يلي :

« ... ابتدأنا في الكتابة منذ ٥٥ سنة. واول كتابتنا كانت في ثمرات الفنون والاتحاد العثماني ثم في جريدة حديقة الاخبار اذ كنت وكيلها ومراسلها في صيدا. وكل كتابتنا او جلها كانت في محاربة الزعماء المستبدين، ونقد الموظفين الخائنين المرتشين، ونصرة القائمين بنشر الحرية والدستور ...» .

وهنا نستطيع ان ندرك الروح الثوروية التي دفعت الكاتب الى الكتابة منذ نعومة اظفاره . فقد شب وشاب على محاربة الزعماء المستبدين، ونقد الموظفين الخائنين المرتشين، ونصرة القائمين بنشر الحرية والدستور .. هذا الدستور الذي كان السلطان عبد الحميد قد عطله، فقام رجال الاصلاح والاحرار العثمانيون، ومنهم الشيخ عارف بالضغط على العهد لاعادة الحياة النيابية الى السلطنة، فاعيدت سنة ١٩٠٨ واستبشر العرب بها، ورفعوا شعارات الحرية والمساواة التي نادى بها الانقلابيون، وبادر كثير من المثقفين العرب الى الانتساب الى جمعية الاتحاد والترقي. ولكن تبين فيما بعد ان اقطابها عنصريون يسعون لسيادة الحكم التركي فقط.

في هذا الخضم السياسي انشأ الشيخ عارف مجلته الشهرية «العرفان» ، فصدر الجزء الاول منها في المحرم سنة ١٣٢٧ الموافق فبراير (شباط) سنة ١٩٠٩ في ١١٤ صفحة في حجم مجلة «الهلال» المصرية لصاحبها جرجي زيدان. وظهر على غلافها التعريف التالي:

« العرفان »
مجلة علمية ادبية اخلاقية اجتماعية
تصدر كل شهر عربي
لمنشئها
احمد عارف الزين
في صيدا

قيمة اشتراكها في صيدا ريال مجيدي واحد وفي الخارج ربع ليرة فرنسية.

والى يمين هذا التعريف الاية التالية
«قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون»
والى اليسار : «تعلّم العلم من المهد الى اللحد»

اما فاتحة العدد الاول فيشير صاحبها الى عوامل الانحطاط التي انهكت الامة العثمانية، والى قيام نيازي وأنور، بطلي الحرية، بواجبهما

المقدس نحو الامة والوطن، ثم يتمنى للمملكة مدينة تضاهي بها اعظم ممالك الارض، ثم يقول :

«هذا ولما انتشرت أشعة الحرية على ارض المملكة العثمانية انبرى فريق من حملة الاقلام اصحاب الافكار النيّرة الى انشاء الصحف والمجلات علما منهم بأنها أنجع ذريعة لتهذيب الشعوب وتنوير العقول ، وخير عامل على رقيها وفلاحها، وأحسن ضامن لسؤودها ونجاحها. وعلماء الاجتماع اليوم يعدّونها مقياسا لترقي الامم، ونبراسا مضيئا ينقذها من الظلم والظلم . ونحن مما انتشر بيننا من الصحف بعد الدستور لا يعد شيئا بالنسبة لغيرنا من الامم الحية .

ومنشىء هذه المجلة منذ نعومة اظفاره وهو يتشوق لانشاء صحيفة يتمكن بها من خدمة امته ووطنه اذ (كل امريء ميسر لما خلق له) وقد قيض الله لنا ما نتمناه (والامور مرهونة بأوقاتها) فأنشأنا هذه المجلة على اعتراف منا بالعجز والتقصير، ودعوناها (العرفان) ولكل مسمى من اسمه نصيب. وقد اخذت على عاتقها البحث في العلم والادب والاخلاق والاجتماع قدر ما يستطاع، على انها ستزيد مباحثها اذا رأت اقبالا، فهي تعمل على ناموس الارتقاء وسنة الكون (سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا) وتصدر في كل شهر عربي وفقنا الله لاتمام هذه الخدمة والقيام بهذه المهمة كي يتسنى لنا خدمة الوطن والامة خدمة حقيقية في ظل حكومتنا الشوروية بمنّة ويمنة » .

وفي العدد نفسه قصيدة لصاحب «العرفان» بعنوان «الحرية تشكو» نظمها عند اشتداد الازمة، وذلك قبل الحرية ببضعة اشهر، يقول فيها :

كيف اشكو من البريّة ضيما	ومن الروح في الجسوم بقيه
اسروني فهان اسري لديكم	كيف يا قوم تأسر الحريه
هدموا مجدي المؤثل حتى	بتّ مرمى لأسهم العصبيه
اقضت سنة التمدن في ذا	أم قضت فيه بدعة الهمجيه؟
عيل صبري وطال منكم صدود	اين انتم يا للوفا والحميه
انسيتم زمان رغد تقضى	في حماكم ودولة عربيه ؟

وهكذا نشأت اول مجلة شهرية في صيدا وجبل عامل وشرعت تنافس اشهر مجلات الوطن العربي «كالهلال» و «المقتطف»، وبدأ يكتب فيها الشيخ محمد علي حشيشو، والمحامي سليمان مصوبع، والشيخ سليمان ظاهر، والشيخ منير عسيران، والشيخ احمد رضا، ثم اصبحت منبرا للادباء والعلماء والشعراء من جبل عامل ومن جميع الاقطار العربية امثال شكيب

ارسلان ومحمد كرد علي ومحمود تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي وعبد الرحمن الشهبندر وامين الريحاني وايليا ابو ماضي ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وفارس الخوري وعباس محمود العقاد وشبلي الملاط وخليل مطران ومحمد مهدي الجواهري ومحمد رضا الشبيبي ومحمد مهدي البصير وموسى الزين شرارة وعبد الرزاق الحسني ومحسن الامين وحسن الامين وعبد اللطيف شرارة وعبد الحسين شرف الدين والشيخ علي الزين ومعروف الرصافي وعبد القادر المغربي وغيرهم. واصبحت «العرفان» مرجعا لكل باحث، شرقيا كان ام غربيا .

وفي العام ١٩١٠ انشأ صاحب «العرفان» اول مطبعة لطباعة مجلته، فكانت من اهم مطابع الشرق في حينها .

وفي العام ١٩١٢ اصدر جريدة «جبل عامل» الاسبوعية ، وقد جاء في عددها الاول :

«لا تتبع الجريدة خطة ملتوية ومبدأ متغيرا، وانما تعتصم بالحق في كل حال، وتنطق بالصدق ولو ادى بها الى الاضمحلال»، واتبع ذلك بهذا البيت من الشعر :

« عليك بالصدق ولو انه   احرقك الصدق بنار الوعيد»

وفي مقدمة كتابه «تاريخ صيداء» المطبوع سنة ١٣٣١ هـ. و ١٩١٣م يقول :

«... وبعد، فقد اختلفت مناحي المؤرخين باختلاف الزمان والمكان ونهج كل منهم منهجا خاصا تحدى به من قبله، او استنبطه من تلقاء نفسه. وليس من شأننا ان نفيض القول هنا في التمييز بين الغث والسمين، او نعقد فصلا للمفاضلة بين المؤرخين، من شرقيين وغربيين. غير انا نقول كلمة اجمالية، وهي ان الذين يكتبون التاريخ بدون عصبية وتحيز، قليلون جدا بين الفريقين. فلذلك اصبح تمييز صحيح التاريخ من فاسده من اشق الاعمال. ولا اظن مؤرخا يسلم من الغلط، وينجو من الشطط مهما بالغ في التمحيص وبلغ الغاية من العناية في تتبع الصحيح. ولكن (حنانيك بعض الشر اهون من بعض) وشتان بين من يبذل ما في وسعه للوصول الى الحقيقة الثابتة فيخطئها احيانا، وبين من يراها بأم عينه فيدفعه عنها تعصب أعمى او نفاق وتدليس ...» .

على هذا النهج الاصلاحي والسياسي والوطني والعلمي سار الشيخ احمد عارف الزين في مجلته وجريدته. نهج واحد لم يتغير : محاربة العبودية والتخلف، وتشجيع العلم والادب والثقافة وسائر المعارف .

فكانت المجلة والجريدة ومطبعتهما ومكتبتهما مسرحا ضخما لحركة ادبية وعلمية ووطنية قلّ ان انفرد بادارتها والانفاق عليها، مالا وجهدا، رجل واحد .

وفي دعوته في مجلته للعلم يقول :

هبوا الى العلم والتهذيب جهدكم فانما اعلم الاقوام اسعدها
واسترشدوا بضيا العرفان واقتبسوا ما ضلت الناس والعرفان مرشدها

وحبه لوطنه وتفانيه في سبيله جعله يتوج «عرفانه» بشعار « حب الوطن من الايمان» وكان مؤمنا بالوحدة العربية، فعمل لها طويلا بقوة واخلاص، ثم طالب بالوحدة السورية، ودعا لها تخلصا من الانتداب الفرنسي، وزرعا لنواة الوحدة العربية. وكان يردد في خطبه :

ان تسل عني فهذا نسبي عربي عربي عربي

وكان لا يعرف الحلول الوسط في القضايا الوطنية، فلا هوادة عنده في مقارعة الاستعمار واعوانه مهما اشتد بطشه وبطشهم. وخطبه الكثيرة، ولا سيما المرتجلة، ضد الاستعمار والمستعمرين تتدفق لهيبا. ومقالاته في «العرفان» وجريدة «جبل عامل» اللتين كانت السلطات التركية والفرنسية تعطلهما، شاهد على ذلك .

ففي العام ١٩١٣ اوقفت السلطات التركية جريدة «جبل عامل» اي بعد سنة من صدورها، وحكم على صاحبها بالسجن شهرا ونصف الشهر في الديوان العرفي بعالية لهجومه على طغيان السلطة، وعلى « جمعية الاتحاد والترقي» التي كانت تعمل على تتريك الشعوب العثمانية بعد ان تظاهرت اثر عودة الدستور سنة ١٩٠٨ بتأييد العدل والمساواة، وعودة الحياة النيابية الى البلاد .

وفي العام ١٩١٥ سيق صاحب «العرفان» مرة اخرى الى المجلس العرفي بتهمة تأليف «جمعية فتاة العروبة» مع عبد الكريم الخليل ومحمد حيدر . وفي ذلك يقول:

«... واخذنا بعد ذلك للديوان العرفي في عالية بعد تفتيش بيتنا تفتيشا دقيقا. وشاءت العناية الالهية ان لا يجد المفتشون ما يدينون به لان الواشي اللئيم اكد للمفتشين ان في جيبنا بطاقة تشعر بدخولنا في جمعية فتاة العروبة. ويالها من جريمة عظيمة لو وجدت لكان جزاؤنا الشنق كما فعلوا بالشهداء الابرار. لكن ظهر ان في العمر بقية. وكان المرحوم عبد الكريم الخليل، وفي صحبته الدكتور محمد حيدر، قبل ان ينال الشهادة الطبية، اعطانا هذه البطاقة ولفيف من الاخوان. ولما نفدت البطاقات، كلفنا

ان نحلف اليمين لمن يريد الدخول بهذه الجمعية الفتية (١)..» .
اما القسم الذي تتضمنه البطاقة فهو :

«اقسم بالله العظيم المنتقم الجبار، واقسم بشرفي وشرف الامة العربية انني اتعهد القيام بخدمة مباديء الشبيبة العربية بكل صدق وامانة واخلاص باذلا كل ما في وسعي في سبيل الوصول الى غايتها الشريفة، الا وهي تأسيس الجامعة العربية، ولا انفك عن خدمتها ما دمت حيا، ولا ارتبط بجمعية ما دون اشارة منها. والله على ما اقول شهيد (٢)» .

ويصف حالته في عهد الاتراك والفرنسيين فيقول :

«... هذه هي حالنا على عهد العثمانيين حيث سجنا سنة ١٩١٣ شهرا ونصف شهر، ثم اخذنا مع من اخذ سنة ١٩١٥م بعد ان روع اهل بيتنا في المرة الاولى والتالية، اذ احاط الدرك بدارنا، واخذنا محفوظين اخذ عزيز مقتدر، وعطلت جريدتنا ومجلتنا. وهكذا كان حالنا على عهد الفرنسيين، فقد منينا بالتعطيل، وحرق العرفان، وشدة مراقبتها، والتشريد والسجن و....و.....و.. الى ما لا نهاية له (٣) » .

ولم يكن رصيد «العرفان» حسابا في مصرف، او بندا من بنود النفقات السرية للدعاية، او مساعدة من دولة وطنية او اجنبية، او تشجيعا من حزب او جمعية؟ بل كان رصيدها الايمان والثبات والتضحية المتواصلة والعدد الكبير من القراء في البلاد العربية وايزان والهند وبلاد الاغتراب. فأنفق عليها صاحبها بدلا من ان تنفق عليه، واذاب صحته في العمل لها، وباع ورهن ما تركه له ابوه وشريكة حياته بدلا من ان يثري ويبتني الدور الفخمة للنشر وللسكن والاستثمار !

وعاشت «العرفان» في رعايته خمسين عاما تهاوت فيها صروح مجلات زميلة كبرى «كالمقتطف» و «الرسالة» و «الثقافة» و « الكتاب » ، وبقيت «العرفان» صامدة بفضل ايمان صاحبها ونفسه الطويل على الكفاح والمثابرة فلم يسترح يوما، ولم يلق سلاحه، فليس ذلك من طبيعة المجاهدين. ولم ينكس راية النضال الوطني في اي من العهود الثلاثة التي عاشها، لان المغريات لم تكن قط في الحسبان. وليس في ذلك غرابة، بل الغرابة ان ينأى رجل العلم والادب، او اي رجل فكر ـ بعلمه وادبه ـ عن قضايا وطنه

(١) «العرفان» المجلد ٤٧ ايلول ١٩٥٩
(٢) «العرفان» المجلد ٤٨ ايلول ١٩٦٠ .
(٣) «العرفان» المجلد ٣٩ العدد من ربيع الاول الى ذي الحجة ١٣٧١ و ١٩٥٢ .

وامته، ولا سيما عندما يكون الوطني والامة تحت نير استعمار او استغلال او اقطـاع !

وكان يكره الجمود والتحجر، ويحب لنفسه ولقومه التقدم والتطور. وكان مؤيدا لسياسة عبد الناصر في مؤتمر باندونغ الداعي الـى الحياد الايجابـي .

قيل له : ايها المجاهد العربي! ياشيخ المسلمين! كيف تزور موسكو؟ فانتفض انتفاضة مهذبة واجاب :

«شعب الاتحاد السوفياتي شعب صديق لنا، ودولة الاتحاد السوفياتي دولة كبيرة. وقد وثب الجماعة وثبتهم التاريخية الجبارة في مدة ثلاثيـن عاما، بينما اقتضت نهضة غيرهم مئات السنين، فلم لا نطلع على نواحـي حياتهم الخصبة، ونقف بأنفسنا على وجوه نشاطهم ونهضتهم؟ اني كعربـي ارى مصلحة بلادي في الحياد الايجابي بين المعسكرين المتنافسين المتناحرين، ولاني كمسلم اكره الجمود، واحب لنفسي ولقومي التطور (١) » .

اما فلسطين فقد اولاها شطرا كبيرا من نشاطه واهتمامه سواء أكان في «عرفانه» ام في خطبه وفي المؤتمرات التي كان يحضرها .

وفي تشرين الاول من العام ١٩٥١ اقيمت في صيدا حفلة تكريميـة لصاحب «العرفان» حضرتها وفود كثيرة من مختلف الاقطار العربية. وكان من هذه الوفود وفد فلسطين يمثله عبدالله القلقيلي، صاحب جريدة «الصراط المستقيم». فألقى كلمة تساءل في مطلعها :

«.. وهل من الجائز ان تقعد فلسطين عن المساهمة في عرفـان صاحب (العرفان) وقد كانت مجلته موردا لادباء فلسطين وفضلائها يعبـون منهـا العلم والادب والمعرفة؟ وان مجلة (العرفان) لاول مجلة دخلت فلسطين وافاد منها اهل فلسطين الحكمة والادب، وكان في الرعيل الاول من الذابين عن حياضها حتى اليوم، وهو رأس في العطف على لاجئيها وما زال (٢)...» .

ولعل العام ١٩٣٦ ابرز اعوام حياة صاحب «العرفان» فـي النضال القومي. في ذلك العام غلى جبل عامل وصيدا بأحداث الوحدة السوريـة، وبثورة فلسطين الكبرى على الانتداب البريطاني وتهويد فلسطين . فكـان الجنوب بأسره مسرحا لنشاط ثوروي لم يعهد له مثيلا من قبل. وجـاءت انتفاضة بنت جبيل على احتكار الريجي في اطار التصعيد القومي فـي

---

(١) «العرفان» المجلد ٤٨ ك٢ وشباط ١٩٦١ .

(٢) «العرفان» المجلد ٣٩ ربيع الاول ١٣٧١ وكانون الاول ١٩٥٢ .

المنطقة. فقد كانت مدن الساحل وجبل عامل وبعلبك، منذ ان اعلن الجنرال غورو «دولة لبنان الكبير» معارضة لذلك الاعلان، ومقاومة لسلخ الاقضية الاربعة : راشيا وحاصبيا وبعلبك والبقاع عن سورية والحاقها بلبنان. وكانت تلك الاقضية تابعة لولاية سورية في العهد التركي .

وكان المؤتمر السوري العام الذي عقد سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ قد اصر على بقاء بلاد الشام كلها تحت راية الامير فيصل الذي توج ملكا في دمشق في ٨ اذار ١٩٢٠ فأرسلت الحكومة السورية منشورا الى جميع المناطق تعلن فيه موقفها من تأييد جبل عامل وصيدا كاملا. فشنت سلطات الاحتلال حملة اعتقال على الوطنيين، وعمدت الى حمل اهل صيدا وجبل عامل على توقيع عرائض تستنكر ملكية فيصل، وتطالب بالالتحاق بلبنان ولكن احدا من السكان لم يوقع .

وقد اجاب مدير ناحية النبطية قائلا : «ان الحصول على التواقيع غير ممكن للروح السائدة في البلاد من التعلق بالملك فيصل وبالوحدة السورية، والنفور من الالتحاق بلبنان (١)» .

ويذكر الشيخ احمد رضا حادثة جرت في صيدا عندما وفدت اليها سنة ١٩١٩ لجنة الاستفتاء الاميركية «كينغ كراين» المولجة باجراء استفتاء في نوع الحكم الذي يريده اهل البلاد . يقول :

«... فجاء الى صيدا وفد من مئة شخص يمثلون الشيعة مطالبين بالانضمام الى الوحدة السورية، وبرفض الانتداب الفرنسي. وحين قابلهم الحاكم العسكري سألهم :

ـ كيف تريدون الشكل الموافق للحكومة في هذه البلاد، وهل الاصلح لها الفرنساويون او العرب ؟

فقلنا له : ونحن شعب عربي سوري، نتمنى ان تكون حكومتنا عربية سورية ... وهل يلام المرء على حبه لقومه؟ ثم قال : ان الحكومة الفرنسية تحب الشيعة وتميل اليهم ... ومتى تقرر المصير، واصبحت فرنسا هي الدولة المنتدبة لسوريا، فان الشيعة ستنالهم حقوقهم وزيادة. فقلنا له: ان علماء الاجتماع قرروا ان على الحاكم واجبا، وعلى المحكوم واجبا اخر.. فاعطاء المحكومين حقوقهم، والعدل بينهم مما يجب على الحكومة، فقال: وهل تظنون ان الشام تعطي الشيعة حقوقها؟ فقلنا : وما الذي يمنع ذلك؟ ثم قال : لمن تدعون في مساجدكم؟ قلنا : اننا ندعو لملك العرب حسين.

---

(١) احمد رضا «العرفان» المجلد ٣٣ ص ٧٣٤ .

قال: وكيف تقولون برئاسة الملك حسين الدينية، وهو سني وانتم شيعة؟ قلنا: لانه قد حاز الشروط من حيث كونه قرشيا هاشميا، ولا يمنع من خلافته كونه سنيا (١) » ...

وعندما استشار المندوب السامي الفرنسي «هنري دو جوفنيل» الهيئات والشخصيات السياسية والوطنية في البلاد في المبادىء والخطوط التي يطلب اعتمادها في دستور البلاد الجديد الذي وعد بدراسته وتحقيقه، وجهت صيدا عريضة الى المندوب السامي تحمل تواقيع ملاكها ومزارعيها ومحاميها وتجارها ومخاتيرها وائمة مساجدها، وفي رأس الموقعين صاحب «العرفان». والعريضة تعلن مقاطعة الاستفتاء، وتكرار طلب الانضمام الى الوحدة السورية على اساس اللامركزية.

وفي العاشر من اذار ١٩٣٦ عقد في منزل سليم علي سلام في بيروت «مؤتمر الساحل» المشهور. وكان في مقدمة حضوره صاحب «العرفان». وقد قدم المؤتمرون مذكرة الى المندوب السامي بطلب الوحدة.

وفي منزل صاحب «العرفان» ومنازل عادل عسيران وعباس الحر وآل الجوهري في صيدا كانت تعقد اجتماعات ومؤتمرات من اجل الوحدة السورية.

وكان علي بزي وموسى الزين شرارة والشيخ علي الزين وكاظم الصلح وعادل عسيران وغيرهم من ابرز الشبان تحركا ونشاطا الى جانب الشيوخ: احمد عارف الزين ورياض الصلح وعبد الحميد كرامي وسليمان ظاهر واحمد رضا، وامثالهم.

وكانت مدة امتياز «شركة التبغ والتنباك» الاحتكارية الفرنسية قد انتهت سنة ١٩٣٢ فعزمت السلطات الفرنسية على تجديد الامتياز. فهب الوطنيون في بنت جبيل والنبطية وصور يقاومونه وينظمون التظاهرات والاضرابات احتجاجا على تجديد الامتياز. فعمدت السلطة الفرنسية الى تعيين ضابط عسكري في صيدا (بتشكوف) مستشارا للجنوب، وذلك لضرب المطالبين بالغاء الامتياز وبالوحدة. فاستبد بتشكوف في صيدا وجبل عامل استبدادا شديدا، واتخذ اجراءات ظالمة بحق مزارعي التبغ، فتدوولت الاغاني الساخرة منه، تتحداه ودولته .. ورددها الناس في التظاهرات ...

وحمل على استبداده وبطشه صاحب «العرفان» وفي ١١ تموز ١٩٣٦

---

(١) المصدر السابق

اصدرت محكمة الجزاء المختلطة في بيروت حكمها على الشيخ عارف بالسجن اسبوعا مؤجل التنفيذ لخطاب القاه في صور، وهاجم فيه المستشار الفرنسي حاكم الجنوب بأمره !

وفي العام نفسه برز في صيدا الشاب معروف سعد مندفعا في سبيل الوحدة وفلسطين، فكان يتقدم التظاهرات ويخطب فيها . ثم قاد حركة المقاطعة التي تقررت في فلسطين ضد الصهيونيين، وراح واخوانا له يمنعون تهريب الخضرة والفاكهة وغيرها الى فلسطين عبر الحدود الجنوبية .

وفي ١٢ تموز ١٩٣٦ تقرر انطلاق تظاهرة سلمية نحو سراي الحكومة ومكتب المستشار الفرنسي للاحتجاج على سياسة الارهاب التي تستعملها سلطة الانتداب ضد رجال الحركة الوطنية والثورة الفلسطينية . وراحت الجماهير تهتف للوحدة السورية، فأمر قائد الدرك (الياس المدور) باطلاق النار على الجماهير ، فاستشهد بعضهم، واصيب معروف سعد وهو يقتحم قشلة الدرك في جراة ومجازفة خطيرتين، ووقع ارضا لكثرة ما نزفت جراحه من دماء، فاقترب منه رجال الشرطة وحملوه الى احد مكاتب القشلة حيث عولج واوقف .

فهاجت المدينة. ووقف الشيخ عارف في جموع المتظاهرين يخطب مندداً بالاستعمار وعملائه، ومعلنا ان الاضراب والتظاهر لن يتوقفا ما لم يطمئن الناس الى سلامة معروف سعد. وعندما رأى قائد الدرك بوادر هذا العصيان، أمن للشيخ عارف مخابرة هاتفية مع معروف سعد (الموقوف في القشلة) تأكد له فيها سلامة رفيق كفاحه . ولكن الاضراب المفتوح تقرر الى ان يفرج عن سعد. وقامت وفود غفيرة من النبطية وبنت جبيل وصور ومرجعيون وطرابلس وبيروت وصيدا بمقابلة رئيس الجمهورية للاحتجاج على قائد الدرك الذي امر باطلاق الرصاص. وتألفت لجنة في صيدا للاشراف على تنظيم الاضراب وجمع الاعانات للمنكوبين ، وانتخاب المحامين للدفاع عن المتهمين. اعضاء هذه اللجنة هم : الشيخ احمد عارف الزين وحسني ابو ظهر وعادل عسيران وكاظم الصلح وشفيق لطفي والحاج علي البزري والدكتور رياض شهاب ومحمود الشماع ومحمد السنيورة وتوفيق الجوهري وكامل قاسم ونديم حمادة ونور الدين الجوهري ومحمد عبد السلام المجذوب .

وفي ليلة الخامس عشر من تموز وصلت من بيروت قوة كبيرة من رجال الشرطة، فاعتقلت الشيخ عارف وبضعة شبان من صيدا، فأثار ذلك

من جديد موجة سخط عارمة على سلطة الانتداب، فاستمر الاضراب، وراحت الوفود تؤم منزل الشيخ عارف معربة عن استنكارها لاعتقاله، وتنتقل الى بيروت لمطالبة المسؤولين بالافراج عنه .

وفي التاسع والعشرين من تموز اجرت جريدة «بيروت» تحقيقا واسعا عن الاضطرابات في صيدا وجبل عامل تحت عنوان «يقظة الجنوب» نقلت فيه حديثا للضابط المدور ـ لم يصدقه المحرر كله ـ اتهم فيه الشيخ عارف بتنظيم الاضراب والتظاهرة، مع ان عبد الحميد كرامي اتصل به قبيل الاضراب يعلمه بالغائه. قال المدور :

«.. وحضر من طرابلس كرامي وبضعة اشخاص وآخرون من بيروت الى صيدا. عقدوا اجتماعا في بيت عباس الحر بوجود الشيخ عارف الزين، وفوضوا الشيخ عارف بالزعامة. وقد عقد هذا الاجتماع قبل المظاهرة بثلاثة ايام، وتم الاتفاق في ذلك الاجتماع على اقفال المتاجر، والقيام بمظاهرة في يوم واحد في صيدا وطرابلس »...

ثم يذكر الضابط كيف اتصل بعبد الحميد كرامي ليقنع الشيخ عارف بالغاء الاضراب والتظاهرة، ولكن الشيخ عارف لم يعلن ذلك على الناس ...

وفي الثالث من ايلول اصدرت محكمة بداية الجزاء المختلطة في بيروت حكمها على الشيخ عارف بالسجن شهرين، وعلى معروف سعد بالسجن عشرة اشهر . وقد دافعا عن نفسيهما دفاعا مجيدا .

ومما يذكر ان المفوض السامي الكونت دو مارتيل استدعى ـ في العام ١٩٣٦ ايضا ـ رياض الصلح وعبد الحميد كرامي والدكتور عبد اللطيف البيسار والشيخ عارف الزين، ووجه اليهم السؤال التالي :

ـ لماذا انتم طلاب وحدة سورية؟ فرد الشيخ عارف قائلا : اذا قرات الدروس الذي تعلمون به اطفالنا، يا مسيو دو مارتيل، فستجد علماء اللغة في بلادك كتبوا الى جانب لبنان (جبل في سوريا) فيثور المفوض السامي، وينهي المقابلة محتدا (١) .

وفي الثامن من اب ١٩٣٧ عقد في بلودان «المؤتمر القومي العربي» الكبير الذي ضم وفودا وشخصيات معروفة من الاقطار العربية منها: الامير شكيب ارسلان ورياض الصلح ومحمد علي علوبة (باشا) واحسان الجابري وناجي السويدي ولطفي الحفار وفخري البارودي ونبيه العظمة، والمطران اغناطيوس حريكة ـ ممثلا البطريرك غريغوريوس حداد ـ ومحمد عزة دروزة

---

(١) «العرفان» المجلد ٦٣ اذار ١٩٧٥ .

وجبران تويني والدكتور فريد زين الدين وعمر الداعوق والامير احمد الشهابي وصبري العسيلي وناظم القدسي وفايز الخوري. ومن صيدا والنبطية وبنت جبيل ومرجعيون : الشيخ عارف الزين ومعروف سعد والشيخان احمد رضا وسليمان ظاهر وعلي بزي وموسى الزين شرارة والفريد ابو سمرا (صاحب جريدة القلم الصريح) .

وكانت اهداف المؤتمر الدفاع عن فلسطين، وتنفيذ التدابير الفعالة لمقاومة اخطار الصهيونية التي تهدد الوطن العربي بأسره .

ولم يعقد مؤتمر وطني او قومي في اي بلد عربي الا وكان الشيخ عارف في طليعة المدعوين اليه والمشتركين فيه. وكان له في دمشق بنوع خاص مكانة مرموقة، تشده الى زعمائها ووطنييها صداقات وطيدة .

في مهرجان كبير اقيم في اللاذقية في العام ١٩٥٤ لمناسبة وفاة عبد الواحد هارون من زعماء «الكتلة الوطنية»، دعي الشيخ عارف الى المهرجان، فرافقته في هذه الرحلة، فارتجل خطبة وطنية قوبلت بالاستحسان. ثم سافرنا في اليوم التالي الى حلب. وما ان عرف احسان الجابري الزعيم السوري ورئيس مجلس نواب الوحدة فيما بعد بقدوم الشيخ عارف حتى اقام له مأدبة عشاء دعا لها بعض ادباء حلب وصحافييها، اذكر منهم سامي الكيالي، صاحب مجلة «الحديث». وفي تلك المناسبة القى الجابري كلمة ثناء عاطرة على مواقف الشيخ عارف الوطنية وتقدير سورية له حكومة وشعبا .

وجاء في «قاموس الاعلام» لخير الدين الزركلي عن الشيخ احمد عارف الزين ما يلي :

«.. تعلم في النبطية، وابتدأ يكتب في بعض جرائد بيروت سنة ١٩٠٥ واصدر مجلته ببيروت عام ١٩٠٩ ونقلها الى صيدا سنة ١٩١٢ فاستمرت، ما عدا فترات، الى عام وفاته. ثم تتابع اصدارها، فبلغت ستة وثلاثين مجلدا سنة ١٣٦٨هـ. واصدر سنة ١٩١٢ جريدة «جبل عامل» فعطلت، هي والعرفان، وسجن خمسة واربعين يوما، ثم احرقت مطبعة العرفان سنة ١٩١٥ وسجن ايضا. وفي عهد الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٨ نفي من بلده ، وعاد وسجن سنة ١٩٣٦ مع بعض الزعماء واطلق . وادركته الوفاة وهو يصلي في محراب الامام الرضا في مدينة مشهد بايران. وكانت له مشاركة في حركة اليقظة العربية. ولم يعقه ما لقي في سبيلها من تجن ونفي عن متابعة العناية بمجلته التي كانت اعظم ميدان لاقلام كتاب عصره من العامليين على الخصوص، والشيعة الامامية بصفة عامة. وكان لمطبعتها الفضل في نشر جملة من كتب

م — ٤

الادب والتاريخ. وصنف «تاريخ صيداء» و «تاريخ الشيعة» و « الحب الشريف » .

وعند وفاة الشيخ عارف في ١٥ تشرين الاول ١٩٦٠ انهالت برقيات التعزية من الرؤساء والزعماء السوريين مكبرة في الراحل كفاحه وجهاده في سبيل الوحدة والتحرير. وكذلك ارسلت البرقيات والرسائل من جميع البلاد العربية الى لجنة الاحتفال بذكراه في اليونسكو ببيروت .

اما صيدا التي حضنت الفقيد وحضنها في حب واخلاص وتقدير اكثر من ستين عاما، فقد مثل حرقتها على فقده نائبها المناضل معروف سعد، رفيق جهاده ، بقوله :

«.. هنيئا لاستاذنا وقائدنا الشيخ عارف مرقده الاخير وضجعته الطاهرة. ولكن انها لحرقة لنا، اي للبلدة التي جاهد وناضل من اجلها الشيخ عارف، والتي وضع تاريخها، ورفع اسمها عاليا في انحاء الدنيا، وشاركها سراءها وضراءها والامها وامانيها، ان لا تكون ضجعته الاخيرة فيها وان لا يتمكن اهلها من التعبير عن شعورهم نحوه (١) » .

لقد كان منزله في صيدا مضافة للزوار من الادباء والعلماء والشعراء والشخصيات الوطنية والسياسية. وكانت الاحاديث والمناقشات الادبية والعلمية والوطنية تطغي على سائر الاحاديث، وذلك على غرار الصالات الادبية المشهورة التي كان يقيمها العقاد وطه حسين، والصالات الباريسية في القرن السابع عشر. ولكن هذه الصالات كانت تفتح مرة في الاسبوع، في حين ان صالة الشيخ عارف مفتوحة في كل يوم .

كنت احتلف الى تلك الندوات بعد الظهر في اواسط الثلاثينيات، واستمع بشغف الى ما يدور فيها من مناقشات ومساجلات ، كما كنت اتردد الى مكتب صاحب « العرفان » في مطبعته للاطلاع على الكتب الصادرة حديثا ، والواردة اليه لتقريظها . وكان منزله ومكتبه يضمان عددا لا يستهان به من الكتب النادرة ، ولا سيما المخطوطة .

وكان يشجع العلم والمعرفة ، فاشترك سنة ١٩١٢ مع الشهيد الصيداوي الضابط توفيق البساط في تأسيس « جمعية نشر العلم » وانتخب رئيسا لها . وبعد ثلاث سنوات اعدم جمال باشا (السفّاح) توفيق البساط في قافلة الشهداء الاولى في ساحة البرج في السادس من ايار ١٩١٦ .

---

(١) «العرفان» الجزء الرابع المجلد ٤٨ كانون الا.ل ١٩٦٠ .

وكان يشجع الناشئين على الكتابة . فكان حلمي ان اقرا اسمي مطبوعا في « العرفان » في ذيل مقالة ... الى جانب اسماء الكتاب المعروفين . فلخصت موضوعا عن الفرنسية ، ولم اجرؤ على تسليمه للشيخ عارف يدا بيد مخافة الاعتذار عن النشر .. فأرسلت المقالة بالبريد ، وراحت تؤرقني حتى آخر الشهر . واذا بي اتلقف العدد، واقلّب صفحاته سريعا حتى عثرت على الاسم المنشود ... فرحت اعيد قراءة ما كتبت مثنى وثلاث ورباع منتشيا اعجابا ! وفي اليوم التالي زرت الشيخ عارف في مكتبه اول مرة ، وكان ذلك في العام ١٩٣٦ ، فشجعني على متابعة الكتابة في « العرفان » ، فتابعتها حتى نهاية الاربعينيات.

ثم دفعني التشجيع ـ او غرور الشباب ! ـ الى النشر في«الثقافة» المصرية ، وفي « المكشوف » و« الامالي » و« العلوم » و «الاداب» اللبنانية، و « التمدن الاسلامي » الدمشقية وتحوّلت من التدريس في مقاصد صيدا الى الصحافة والاعلام ، ثم الى القضايا القومية ، فلم يعد اسمي مطبوعا ، مثار اهتمامي واحلامي ... ولكن بقي محفورا في نفسي اسم ذلك الشيخ الوقور الشجاع الذي مثّل العقيدة والجهاد امام القوة والسلطان ابلغ تمثيل ، وامتحن بالسجن والحرمان والجحود، فلم تلن له قناة، ولم تهن عزيمته، ولم يضعف ايمانه .

بقي مطبوعا في نفسي وفاء ذلك الرجل الذي اشتهر به ، والوفاء خلة شريفة نادرة في كل عصر ومصر !

بقيت صورة ذلك الكاتب عف اللسان والقلم ، والصحافي الذي لم تتسع يده لغير مقبض القلم الذي حمل به لواء العفة والطهارة والاصلاح، وقاوم الطغيان والجهل والاقطاع ، فعاش سنواته السبع والسبعين عيشة التقشف والاباء ، فكان مثلا يضرب به لرجال الدين والعلم والادب والوطنية في ايثار الحق والعدل والموضوعية على المغانم وشهوات النفس والدعاية الشخصية .

وبقي حب وطنه الطاغي على جوارحه كلها عميقا في نفس جميع قارئيه وسامعيه وعارفيه، حتى لكأنه يتمثل قول معروف الرصافي :

اشربت حب بلادي ما نشأت بها
الا لأدفع عنها كل عدوان

اخلصت حبي لها حتى نسيت به
نفسي واهلي واحبابي وخلاني

يا موطنا لست منه في موادعة
عش بعد موتي عيش الوادع الهاني
ان سرّك الدهر يوما سرني واذا
آذاك بالمزعجات الدهر آذاني
وليس ينفعني عز ولا شرف
ان لم تكن انت ذا عز وسلطان !

الشيخ سليمان ظاهر : رائد عروبـــي

بقلم : د. احمد بو ملحم

فترة التفتح ١٨٧٣ ــ ١٩٠٧

ابصر النور سنة ١٨٧٣ في النبطيـــة في عام « زهرة الاداب » (١) في الوسط بين البشير والمقتطف (٢) . ولد في مخاض اعلان الدستور العثماني وتفتح على نشوة تنادي المتنوريـــن بالحريـــة والمساواة والاخاء يوم اضطر السلطان عبدالحميـــد الى اعـــلان الدستور والشروع بتنفيذه .

كتبت « العرفان » تترجم له : « ولد بالنبطيـــة من ابوين صالحيـــن في المحرم سنة ١٢٩٠ هـ . ولم يطـــو صحيفـــة العاميـــن حتى مني بوفـــاة والدته فكفلته خالته ، ولما بلـــغ العشر تلقى القرآن الكريم ومبادىء الخط والاملاء على بعض شيوخ بلده . وحبب اليه والده العلم على فقد وسائلـــه بهـــذا البلد في ذلـــك العهـــد فصادف ذلـــك هوى في نفسه ، فطفق يتلقى مبادىء العلم عـــن شيوخه متنقلا من بلده الى النبطيـــة الفوقا فمدرســـة النميريـــة » (٣) التي انشأهـــا السيد حسن آل ابراهيم فالنبطية الفوقـــا

---

(١) زهرة الاداب جمعيـــة تأسست ١٨٧٣ بفضل اديب اسحاق واسكندر عازار وسليم النجار ونخلـــة التويني .

(٢) البشير انشئت ١٨٧٠ والمقتطف ١٨٧٦ .

(٣) العرفان ، م ١٢ ، ج١ ، سنة ١٩٢٦ ، ص ٢٣ .

مجددا حيث التحق بحلقة شيخه الاول السيد محمد نور الدين سنة ١٨٨٦ وفي العام نفسه انتقل الى بنت جبيل وفيها مدرسة الشيخ موسى شرارة التي اقفلت بعد عدة شهور لوفاة مؤسسها فقفل عائدا الى بلدته ينتظر تطوير مدرسة الشيخ محمد نورالدين التي عرفت بالمدرسة النورية فتلقف العلم فيها على يدي الشيخ جواد آل سبيتي بدءا من العام ١٨٨٩ .

وفي عام ١٨٩٢ م افتتح السيد حسن يوسف مكي المدرسة الحميدية في النبطية التحتا « واستقدم اليها عددا من خريجي مدرسة حنويه وبنت جبيل وعلى راس هؤلاء الشيخ احمد آل مروة حيث درس عليه شرح الشمسية والتلخيص ومقدمة معالم الدين في اصول الفقه ، والشرائع في الفقه ، وبعض كتب الكلام ، وكذلك تلقى شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الثاني على يد السيد حسن يوسف مكي .

وفي سنة ١٨٩٤ تزوج من ابنة خاله من آل بدير لكنها قضت في عامها الاول اثناء وضعها لطفلتها ، فانتظر عشر سنوات ليتزوج من جديد من آل بدر الدين وليرزق على التوالي ـ فوزية البكر وقد تزوجت في الشام .

- ومحمد رؤوف وقد عمل كاتب عدل لفترة طويلة من الزمن .
- بلقيس وقد قضت في ريعان صباها ولم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها .
- فاطمة .
- احمد الشاعر شبيه والده ولقد حدثني بحديث عمر الرافعي عندما كان يزور احمد عارف الزين وقد اصطاف عامها في النبطية حين قال : احيي في هذا الوجه الصبوح الشيخ سليمان ظاهر ، وهو لا يعرف ان قبالته احمد سليمان ظاهر .
- زهرة ارملة المرحوم جعفر صفي‌الدين .
- عبدالله مؤلف الكتب المدرسية .

اذن انهى سليمان مرحلة الاخذ سنة ١٩٠٧ وانكب على المطالعات وخاصة المجلات نذكر منها الهلال والمقتطف والمنار ومجلة المجمع العلمي العربي الدمشقي والمقتبس بالاضافة الى العرفان الاثيرة على قلبه .

مرحلة الشغب ١٩٠٨ ـ ١٩١٥

تعرف باكرا على الشاعر ابراهيم الاسود وجريدته « لبنان » وقد

تلقى وكالة من صاحبها يعود تاريخها الى ٨ تشرين الاول سنة ١٨٩٨ (٤) .

وكان قد اطل على الناس بباكورة شعره سنة ١٨٨٨ .

سنة ١٨٩٩ كانت حافلة بالنشاطات الاجتماعية ففيها اسس مع صديقيه احمد رضا ومحمد جابر آل صفا جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في النبطية وقد كان نائبا للرئيس وكان من عمدتها طوال حياته ، رافقها مدماكا مدماكا ، كان يتألم اذا خسرت فلسا ويفرح ان تقدمت خطوة . وان حصل على مساعدة لها لا ينام الليل قبل ان يسلم المال لصندوقها . وهل أدل على حبه لها من ان يهديها مكتبته الخاصة التي حوت آلاف الكتب كما فعل ذلك من قبل الشيخ احمد رضا على عادة العلماء الانسانيين . الا ان يد الاهمال والجهالة عبثت بهذه الثروة واضاعت الكثير واهملت ما بقي .

وكذلك انضم الى جمعية التعاون الخيري .

واسس مع صديقيه احمد رضا ومحمد جابر المحفل العاملي .

وقد كانت المحافل انذاك تضم خيرة رجال الاصلاح والثورة ، يكفي ان نذكر اسماء جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ ابراهيم اليازجي ، اذ ان الماسونية دخلت بلادنا تحت شعارات الاخاء والمساواة والحرية .

وانضم الى فرع جمعية الاتحاد والترقي في النبطية وكان في لجنتها التأسيسية لكنه سرعان ما تركها بعدما انقضى شهر العسل بين هذه الجمعية والعرب . ويظهر ان علاقته بالاتراك ساءت قبل ذلك بفترة طويلة اذ ان السلطات العثمانية داهمت منزله ولم تكتمل فرحته بزواجه الثاني وقلبت مكتبته راسا على عقب وكذلك فعلت بصديقيه الحميمين احمد رضا ومحمد جابر . فعلت السلطات العثمانية ذلك بوشاية مدير ناحية الشقيف ، لكنه افلت بلباقته وتغاضي الموظفين المنتدبين للتفتيش .

وكذلك انضم الى الجمعية الخيرية العاملية في سنة ١٩٠٨ .

نلاحظ النقد بغية الاصلاح والثورة من ثنايا خطبه حتى عندما يستدعى لاستقبال الوالي الزائر للنبطية في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٠ عندما يقول : « ان خير ما في رحلة والينا انها خلو من روح العظمة

---

(٤) رسالة خاصة بحوزة حفيده علاء ظاهر .

والكبرياء وبعيدة عـن كل بهرج وفيهـا بث روح المحكوم بحاكميه وان ليس الحكام الا طبقـة من الامة وليسوا في مستوى اخر ، ولا هم في مصاف الملائكـة والالهة . كمـا كـان حكام العهـد البائد وهو يبتعـد عـن تكليف الاهالـي لضيافتـه » (٥) .

لم تكن المداهمات سوى مقدمة . فصاحبنا بعدمـا تمرس بالنشاطات الناديـة اصبح قطب الرحى في سياسـة جبل عامل في فترة حرجـة من اشـد المراحل التي مرت على البلاد تشبهها الى حد ما المرحلـة الحاليـة من ناحيـة قساوة الظروف والفوضـى والعيش فـي مرحلـة انتقاليـة الى المجهـول .

الذروة ١٩١٥ ـ ١٩٢٢

سيق في حزيران سنة ١٩١٥ الى الديوان العرفي في عاليه للمحاكمة السياسية بدافع من كامل بك الاسعد، وكان فـي عـداد تسعـة وعشريـن موقوفا ، افرج عنه بمسعى صديقيه محمد كرد علي والامير شكيب ارسلان، وبتدخـل من مفتي الجيش الرابع (٦) .

لكـن هذه لم تثنه عن عزمه فازداد التحامـا بالعمل الوطني لتحريـر البلاد ، حتى ليمكننا القول بأنه اصبح قائد الشبيبـة العربية المطالبـة بالاستقلال العربـي . نستدل على ذلـك من تقارير مخطوطـة (٧) . ومـن بطاقـة موسومة باسـم رفيـق التميمي المتخرج من جامعة السوربون في باريس . بيروت . كتب على قفاها : حضرة الاستاذ ، ارسل اليكم مناشير يدويـة وهي المطاليب التي تم الاتفاق عليهـا من اللجنـة الدوليـة التـي وصلت امس الى يافا ، وزعوهـا بحسب معرفتكم .

ونستدل على ذلـك ايضا مـن الرسائل الموجهة الى دار الاعتمـاد العربي والتي كـان يحتفظ سليمـان ظاهر بنسخة طبق الاصل عنها .هذه الرسائـل تحتوي على نشاطات انصار الحركة العربيـة في شتى نواحـي

---

(٥) جريدة الاتحاد العثماني ، لصاحبهـا حسن طبارة ، بيروت ، ١٤ت٢ ٦ سنة ١٩١٠ .

(٦) سليمان ظاهر ، الذخيرة الى المعاد في مدح محمد وآله الامجاد ، ص ٣١٤ مطبعـة العرفان ، سنة ١٣٤٨ هـ .

ـ حديث مع حفيده علاء .

(٧) رسائل مخطوطـة الى رفيق التميمي مسؤول الاعتماد العربي فـي بيروت محفـوظة لدى حفيده علاء .

الجنوب ، في صيدا ، وصور والنبطيــــة ، وزفتــا ، والزراريـــة ، والبراميــة ، وجزين . وفي احدى الرسائل المؤرخـة بـ ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩١٩ يقول في مقدمة التقرير : سلام واحترام وبعد فقـد عدت من النبطية الـى صيدا بعـد ان اقمت فيهـا مدة خمسة عشر يومـا ، وقدمت لكم تقريرا بواسطـة السيد عبدالسلام شهاب وفيه بعض مقترحات توقعت ولا ازال اتوقع اجابتي عليهـا واليكم الآن خلاصة ما وقفت عليه من ابناء صيـــدا والجهات وما يتطلبه الاخوان هنـا وفي الملحقـات مـــن تحديـد الموقف ووضع الخطط .

ونستدل على قيادته للحركـة العربية من ان المعارضة المتمثلة بأبناء العشائر (الفضل او الحسن في النبطية ، والدرويش في زفتا ، وعسيران في حارة صيدا) كانوا يجتمعـون اليه يجاورونه تارة ويهددونـه طورا ، ويتآمرون لاغتياله والشيخ احمد رضا في حين آخر .

اذ كتب في ٢٦ ـ ٦ ـ ١٩١٩ ما يلي : حاول محمد التامر وراشـد عسيـران اقناعي بالاتفاق مع اللبنانيين في ضم بلادنـا اليهم على شرط ارتباط لبنان بسوريـا سياسيـا واقتصاديـا فعارضتهمـا في ذلـك ... ان هذه الفكرة سكنت اليـوم ، وافلس مروجوها .

ونستدل على ذلـك من حرص الاقطاع على ارضائه ، يقول بتاريـخ ٧ ـ ٦ ـ ١٩١٩ : « اجتمعت بحسين الدرويش واجتهـد كثيرا في تبرئة نفسه ممـا نسب وينسب اليه واقسم علـى ذلـك ... ولكـن ذلـك لـم ينف مـا في نفسي نحـوه ونحـو زمرة عشائر جبل عامل من الارتيــاب بمسلكهـم » .

ونستدل على ذلـك من اقتراحاته التي كان يقدمها الـى الحكومـة العربية بشأن بعض القيادات المذبذبة ، اذ انه كتب بتاريخ ٦ ـ ٤ ـ ١٩١٩ ما يلـي : « لا خطة ثابتة لكامل بـك الاسعـد يركـن اليها ، وهو نافذ في العشائر ، ومفرط في محبة الظهور ، كثير التردد في الراي ... ولو وجدتم له وظيفـة في دمشق تليق بـه وبظهوره المتفاني فيه وتقصيه عن هذه البلاد .. لأمنا غائلة تقلبه وتردده .. » .

اختير الشيخ سليمـان ظاهر لهذه المهمة المعقدة وفي احلك الظروف لحصافـة رأيه ، ولقد دلت كتابته على صحـة ما يذهب اليـــه في نقد الاشخاص والطبقات واستشراف المستقبل ، حتى لتقترب كلمـاته مـن الامثال . كتب ، وهذا الكلام يعبـر عـن الواقع الراهن : « يطلبون فـي الجلاء الاجتماع بنـا للاتفاق وفي الخفاء يعملون على اتساع فرصة الخلاف » .

وفي الرسالة ذاتها يقول : « نحن نعتصم بالحق ، وهم بالرعاع يعتصمون ويرون انهم بهم يدركون منا ما يأملون ، ولقد اسقط في أيديهم ، وقد اعيتهم الحيلة من حل عقد جماعتنا فرأوا اليوم من الثبات والمتانة ما لم يروه امس ، اصلحهم الله » .

وفي تحليله ترشيح كامل الاسعد نفسه عن الاقضية الثلاثة للمؤتمر السوري يقول : « ترشيح كامل بك الاسعد نفسه عن الاقضية الثلاثة يفيد في المؤتمر السوري اولا لان له صوت واحد وثانيا لان حاكم الجديدة حظر عليه الاشتراك في المؤتمر وهو لا يجرؤ على معاكسته » ...

ان لهذه المخطوطة قيمة وثائقية لا تثمن ، فهي لا تؤرخ لطبقة حاكمة او طبقة مستفيدة من السلطة ، بل هي وثيقة تؤرخ للشعب مباشرة ، وتؤرخ من موقع المسؤولية المباشرة وليس من بعيد . اذ ان الحركة العربية استقطبت الجماهير الشعبية وقاومتها العشائر والاقطاعية . واذا بدا كامل بك الاسعد يؤيدها فما ذلك الا لانه يراهن على نجاحها . الا انه ويوسف الزين ابقيا شعرة معاوية مع الفرنسيين وزجا بالدرويش والفضل وعسيران والتامر في معارضة هذه الحركة الاستقلالية العربية . ولتبيان مدى استقطاب هذه الحركة نورد هذه الرسالة : « لا يحمد المحتلين من المسيحيين الا طائفة من النفعيين وقد اخبرني بعض القادمين من قضاء صور ان مسيحيي عينبل منقسمون قسمين : فأبناء الروم الارثوذكس وكاهنهم يجاهرون باميالهم العربية وابناء الروم الكاثوليك والموارنة يجاهرون بالعكس ، ولقد حصل بينهم شجار انجلى عن جرحى . وفي الجديدة قسم غير قليل من الاسر المسيحية كاسرة غلمية وشديد وبيوض ورحال لا يكتمون ميولهم العربية، اما المسلمون في قضاء صيدا وصور ومرجعيون فلم نتحقق على كثرة متابعة البحث ان فيهم من شذ عن المبادىء العربية الا اشخاصا لا يعدون لا في العير ولا في النفير . واما المتنفذون منهم فهم يراعون السلطة الحاكمة ويتخوف منها كل ملوث الماضي واذا ارتفعت فلا أراهم يحيدون عن الخطة العامة » .

وفي رسالة اخرى بتاريخ ٣٣ ـ ٤ ـ ١٩١٩ يبدي ارتياحه بما شاهده من جال صور وشعور سكانها الوطني .. اذ لم يسمع ان فيها من شذ عن المبدأ العربي اللهم الا خمسة انفار وهم داود الدادا مفتي صور وحسين الدادا نقيب الاشراف وسعيد عبدالله المملوك وشخص لا يذكر اسمه ... ويرتاح ايضا لكون السنة والشيعة على تمام الوفاق

والوئام وينضم اليهم بعض المسيحيين المعتدليـن وكلهم ناقمـون علـى الخمسة لدرجـة المقاطعـة .

هذه المواقف الوطنية الجريئة جعلته عرضة للتنكيل به مـن قبـل فرنسا كما نكلت به في السابق تركيـا .

سبحان الله كيف ان من قاوم الاتراك استمر يقاوم الفرنسيين ، وان من هادن الاتراك وتزلف اليهم هادن الفرنسيين وتزلف اليهم .

فلطالما هدد شاربنتيه امام كثيريـن في دار حكومة النبطية قائـلا : « ان للنبطيـة منـا يومـا اسود وخصوصـا ظاهر ورضا وجابر » (رسالة بتـاريخ ٤ ـ ٦ ـ ١٩١٩) .

وكان قد ندب سنة ١٩١٨ الى وظيفـة مستنطق في محكمـة صيدا واستمـر فـي وظيفتـه اربعـة اشهـر ثم اقيـل منهـا لاسبـاب سياسية (٨)

وانتخب ليمثل جبل عامل في مقابلة اللجنة الاميركية الباحثة فياحوال جبل عامل ومطامحه السياسية ، لكـن حاكم صيدا الفرنسي حال بينـه وبيـن مقابلـة اللجنـة اذ حجزه ومنعه الخروج من صيـدا الا بعد مغادرة اللجنـة صيـدا .

وسيق مع صديقه الاستاذ الشيخ احمـد رضا مخفورا الى صيدا في بدايـة زحف الحملة الفرنسية على جبل عامل عقب مؤتمـر الحجير ، وحجز فيهـا ثلاثة عشر يومـا حيـن انتهت مهمات الحملة . وبعدهـا بخمسة ايام استدعي الى صيدا مع وفد عاملي لفرض الغرامة الماليـة ووقف النشاطات العسكريـة للثوار (٩) .

انتهت هذه الحقبة في ١٣ نيسـان سنة ١٩٢١ حين اتخذ كامل بـك الاسعـد قرارا بالتحول العلني عن الحركـة العربية والانضمام الى العشائر دعـاة الانضمـام الى جبل لبنان . يذكـر الاستاذ الشيخ احمد رضا في مذكراته المنشورة فـي العرفان : « اخبرنـي سيادة الشيخ عبدالحسين صادق ان كامل بك الاسعـد يتهمنـا بعرقلـة مساعيه التي كان ينويهـا لخدمة الحكومة المنتدبة ثم بسط لي سيادته ورقـة فيهـا صورة تقريـر نظمه كامل بك ليقدمه الى الفرنسيين لتبرئة نفسه يقول فيه : ان تلامذة

---

(٨) محمد علي الحوماني ، مجلـة العروبة ، الجزء الاول ، سنة ١٩٤٧ ، ص ٤٥،بعنوان: « ذكريات عـن القضية العربية ايام فيصل الاول » .

(٩) العرفان ، م ٤٨ ، ج ٧ ، ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥ .

رضـا بك الصلح عدوه ويريد بهم الحاج اسماعيل خليل في صور وصاحب هـذه المذكرات والشيخ سليمـان ظاهر ومحمد جابـر في النبطية ما زالوا بميلهم وتحزبهم للحكومـة العربيـة حجـر عثرة فـي سبيـل خدمتـه للحكومة الفرنسية وان الذي اخبره بمـا يزعم عـن الرسائل التي كانت ترد الى دار الاعتماد بحقه هـو سليم افندي الطيارة احد رجال الاعتماد العربي في بيـروت ... كمـا سمعت من كثير ممن وفد على كامل بك في عدلون خبر هذا التقريـر ومنهم العلامة السيد محمـد ابراهيم وكثيـرون مـن قريـة انصار » (١٠) .

مرحلــة الوظيفــة

بعد ميسلون واستتباب الانتداب ، هدأ الشيخ سليمـان ظاهر قليلا وقد عضته الفاقـة فاتجه للوظيفـة سنة ١٩٢٣ . انتدب عضوا بمحكمـة بدايـة كسروان وبعد اربعـة اشهـر نقل كحاكم صلح ، الى الهرمل وفـي سنـة ١٩٢٥ انتقل الى محكمـة النبطيـة وبقي فيهـا حتى عزل مـن وظيفته لموقفه من الوحدة العربية بعـد ان كشف الفرنسيـون وثـائق دار الاعتماد العربي . فقال في ذلـك :

ابعد خمسين من عمري ومعظمها انفقته في طلاب العلم والعمل اسعى الى الرزق من طرق القضاء ومـا قضيت من ارب فيه ومن أمل ؟

الشهرة والنضـج والتبـرم

شهدت هذه الفترة عدة مؤتمرات نظم اكثرها للاهتمام بالقضيـة الفلسطينية ، التي لم يأل الشيخ سليمـان ظاهر جهدا في دعمها .

ولما كانت قصائده وابحاثه ذاعت في الافاق انتخب عضوا مراسلا في المجمـع العلمي العربـي بدمشق سنـة ١٩٢٧ .

وعضوا في جمعيـة العلمـاء العامليين .

وعضو شرف في جمعيـة الرابطة الادبيـة .

وتولى رئاسة جمعية نشر العلم في صيدا .

وفي سنة ١٩٣٤ اشترك في المؤتمر الاسلامي الذي انعقـد في القدس الشريف .

وفي سنـة ١٩٣٥ شارك من ضمـن وفد عاملي في حفل تابين الملك

---

(١٠) العرفان ، م ٣٦ ، ج ٧ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٦٩٢ .

فيصل الاول بقصيدة مطلعها :

عين الجزيرة اثكلت انسانها
بك والعروبة قلبها ولسانها

والرحلة العلمية من سمات العالم الجليل، لذلك لم تفته الرحلة الى العراق حيث رافق السيد محسن الامين الذي كان يجمع مادة كتابه « اعيان الشيعة » ورحل الى ايران واستمرت رحلته ستة اشهر رثى خلالها ياسين باشا الهاشمي .

السكون :

بعد الحرب الاولى سكن منصرفا الى التأليف والنظم فكان ديوانه الآلهيات وديوان الفلسطينيات . بالاضافة الى اطلالة رائد من خلال جرائد الحياة والصفاء والامالي وجبل عامل ومجلات مصرية كالمقتطف والهلال ، والرابطة العربية ، ومجلات دمشقية كالمجمع العلمي العربي والمقتبس ومجلات عراقية ومهجرية وعلى الاخص مجلات وجرائد الجنوب من العرفان الى المرج الى العروبة الى جبل عامل .

اما بعد استشهاد صديقه الاستاذ الشيخ احمد رضا على ايدي الرعاع فقد انعزل في بيته لا يلوي على شيء حتى استفاق ذات يوم على ضرورة نشر مؤلفاته وجمع شتات مقالاته لاصدارها من جديد فانتقل الى بيروت ونزل على ابنه عبدالله الا ان الاجل عاجله قبل ان يحقق امنيته فقضى نحبه في الخامس من كانون الاول سنة ١٩٦٠ م .

فصح فيه قول عباس الصالحي :

وما سليمان الا الحق مضطهد
في موطن عاش فيه الغش والدجل

شخص تأجج فيه العزم ملتهبا
فليس يثنيه عن اقدامه الوجل

وشاعر رتل الاشعار رائعة
فهز كل فؤاد شفه الغزل

وقائد وطني ليس يرهبه
عند الشدائد لا دس ولا حيل

ولا نملك الا ان نردد مع ابنه قوله :

سموت بعلم وكنت الاثير
وكنت لواء الهدى والخفر

نصحـت العروبـة نصـح الرؤوف

وكنـت اذا مـا عـدا الاجنبـي / وكنت الـذي مـا وهى او عثـر

وفيـا ليعـرب طـول الحيـاة / كذئـب تلقنـه اقصـى العبـر

وكنت لهـا ذهبـا مدخـر

تراثـه

هذه الحياة المديدة ، ملأهـا سليمـان ظاهر ، فمـا ظهر منها للوجود غنـي والذي ما زال مخطوطـا معروفـا فيه نكهـة خاصـة وفيه قيمـة ويكفي أن نشيـر الى مراسلاته مع دار الاعتماد العربي ، وقـد نعثر بعـد على اشيـاء يخبئهـا لنـا اولاده وحفدته واصدقاؤه .

فالمطبوع منهـا :

ـ ديوانا شعر موسومـان : مـن وحي الحياة . الاول الالهيـات والثاني الفلسطينيات صدرا عـن المكتبة العصريـة ـ صيدا ـ بيـروت سنـة ١٩٥٤ .

ـ دفتر صغير فيه قصيدة بعنوان : المهرجان الالفـي لأبـي الطيب المتنبي ، العرفـان صيدا سنـة ١٩٣٦م .

ـ تاريخ قلعـة الشقيف، مجموعـة مقالات نشرت تباعـا في العرفان، جمعت وصدرت عن العصرية ـ صيدا .

ـ سوانح ونصائح ، دفتر في ٣٢ صفحة .

ـ الذخيرة الى المعاد في مدح محمد وآلـه الامجـاد ، العرفـان، صيدا ، سنـة ١٣٤٨ هـ .

واما المخطوط والمقالات التي كـان ينوي جمعها واصدارها . فمنها :

ـ معجم قرى جبل عامـل (مقالات في العرفان) .

ـ القصة في القرآن الكريم (مخطوط)

ـ الرد على القاديانية .

ـ الملحمة العربية الاسلامية (في الدول الاسلامية منذ النبي حتى الآن)

ـ الرحلة العراقية الايرانية (القصائد التي نظمهـا خلال رحلة الـى ايران والعراق) .

ـ الاماني الجامحـة (قصائد)

ـ تاريخ الشيعـة السياسي .

ـ اجزاء ديوانه (من وحي الحياة) في النبويات والعلويات والحسينيات والهاشميات . في كل منها اثنتا عشرة قصيدة .
ـ تعليق على كتاب الثورة العربية الكبرى لسعيد السوري اللاذقي .
ـ مخطوط العرب في الحرب الكبرى .
ـ منظومة في الانسان والسلم والحرب ، المطبعة العثمانية في بعبدا، سنة ١٩٠٧ لم اعثر عليها .
ـ قصائد متفرقة في :
ـ خطط جبل عامل للسيد محسن الامين .
ـ اليوبيل الفضي للمقتطف ١٩٢٦ .
ـ اماني الوحدة لعلي الزين .
ـ هجاء الانسان المتجبر القوي، الاصلاح الارجنتينية، م٥، ج٣، ص١٨٣ .
ـ مجلة الاثار (زحلة) لعيسى اسكندر المعلوف .
١ ـ سوريا وشكواها ، م ٢ ، ج ١٢ .
٢ ـ نظرة في النجوم م٣ ، ج٩، ص ٣٩٣ .
٣ ـ تناقض في الرأي ،م٥ ، ج ٨ ، ص ٣٧٠ .

هذا عدا عن القصائد المنشورة في العرفان والتي تؤلف بحد ذاتها ديوانا ضخما ، اذ اني احصيت في مجلداتها ما يزيد عن ست وثلاثين قصيدة في مختلف الموضوعات والمناسبات بين شوق الى الجنوب وايقاظ للشرق ووصف للبنفسج ووداعه للاصدقاء ونبذ للتعصب الديني، وذكرى الانبياء ، وقدح بهيئة الامم ، والشهادة وحديث الى اميركا وابحاث لغوية في اغلاط الاعلام زادت على اربعة عشر بحثا .

وابحاث تاريخية في بنى زهرة وقلعة يونين وعلماء عاملة في ايران والمهاجر ، والشعوبية ، والاسرائيليين وجبل عامل، ومصر ، والنهضة الجبعية ، ويقظة الشرق العربي .

وابحاث سياسية واهمها : جبل عامل عربي صميم ، ونحن وصحفي فرنسي يدعي حماية فرنسا للشيعة ، وفي الوحدة العربية .

وابحاث اجتماعية : في الحياة والرئاسة ورجال المبادىء ومميزات كل امة، والمراة، والحشيشة، والفضيلة والرذيلة .

كما ترك ابحاثا نقدية في نقد الشعر ، نقد في اللغة ، وصفحات فن وادب : الادب العاملي المنسي ، وضروب الشعر وفنونه ، وحرفة الادب ، وادب المراسلة .

بالاضافة الى الابحاث العديدة التي لم نستطع احصاءها .

كتب اليه بعض الادباء من طلاب الجامعة الاميركية في بيروت يسأله عن رأيه في الوحدة العربية ، بماذا تتحقق وكيف تقاوم ما يعترضها من المعاكسات ، وعن الطرق العملية لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية، وذلك على اثر ارفضاض مؤتمر بلودان سنة ١٩٣٧ ، فبعث اليه الجواب (١١) ، يحدد فيه الدافع للوحدة وامكانية تحقيقها وحدود الدولة العربية المرجوة والعثرات التي تعترضها .

اولا : ضرورة الوحدة :

يرى الوحدة بديهة وضرورة « واما رأيي في الوحدة العربية فهو لا يعدو رأي كل عربي غيور يرى بها الحل الوحيد لمشاكل امته ، والمناعة من سريان الجراثيم الاستعمارية اليها ، ورفع المطامع الصهيونية المؤيدة بالمال وبقوة الاستعمار البريطاني لا عن فلسطين وحدها ، وهي جزء لا يتجزأ من الديار ، بل عنها وعن كل بلد عربي مهدد بهذه الصهيونية الجامحة التي لا مدى لاطماعها ولا حد لخيلائها وتغطرسها وغرورها بكنوزها » .

ثانيا : الوحدة ليست خيالا بل ممكنة :

لذلك قال : « اعمل لها مع العاملين ولا اراها خيالا وحلما من الاحلام ... فلا جرم اذا كنت في اول صف من يحبذها، ومن لا يجب ان يكون معزوا الى امة عزيزة الجانب ؟ وهل اعتزت امة من الامم الا بوحدتها ! »..

واول من تحدث عن رسالة الامة العربية عندما قال : « اتصور تلك الوحدة تصورا حقيقيا لا خياليا منبثقا من شعور الامة بعظمتها التاريخية، بل من الوحدة نفسها التي كونت لها تلك العظمة التي ادت بها رسالة الحق والعدل والعلم والبيان والمدنية الصحيحة الى العالمين ومنها انبثقت اشعة هذه المدنيات والحضارات العالمية » .

ثالثا : اما حدود هذه الوحدة فتضم :

« الجزيرة العربية وديار الشام ، ومصر وطرابلس الغرب ومراكش

---

(١١) العرفان ، م ٣٣ ، ج ١ ، ص ١٧ ـ ٢١ .

والجزائر وتونس .. بل اراها كما هو الواقع او كالواقع ان تخفق اعلامها في كل بلد عربي ينطق اهله بالضاد » .

رابعا : العثرات التي تعترض هذه الوحدة :

يقسمها الى ١ ـ « ما هو من صنع الاجنبي ، ٢ ـ ومنها ما هو من صنع العرب انفسهم ».

١ ـ ما كان من صنع الاجنبي : فهو تذرعه بكل ما يملك من فطنة وذكاء وخدعة ودهاء ، وما سخر له العلم من قوى مادية للاستيلاء على الشعوب الضعيفة والاستئثار بمرافقها الحيوية وبسط سيادته عليها واخطر طرقه لادراك هذا الهدف تفريق جماعاتها ، وهو يملك من اساليبه الشيء الكثير ، ولا سيما في الشعوب التي له عليها سلطان او شبه سلطان .. واستعانته على توسيع مدى التفريق بين ابنائها بالطائفيات والعنصريات وصيانة حقوقها باسم الدفاع عن الضعفاء، وفي البلاد العربية من ذلك الشيء الكثير ... ويدني المفضول ويقصي الفاضل . وهو بعد حرب لكل من يتحسس بحس وطني ويرتاد لوطنه عزة وكرامة وحرية واستقلالا .. ونشر ثقافته فيها ... انتقاص قديم المثقف .. ودعاوته لامته تحت اسم التبشير الديني وهو سياسيا اكثر منه دينيا .. دعم افتئاته بمرافق اقتصادياتها بشتى الاساليب واستئثاره بمختلف الامتيازات .. لا يتألم من افناء الامم الضعيفة في سبيل مصلحته .

اما ما هو من صنع العرب فهو :

« استهواء الامراء منهم والطامحون في الامرة ، والمأخوذون بشهوة الحكم ، والتحزب للاجنبي المفرق بتغليب فريق على فريق ، والانتصار لرهط على رهط ، وفي ذلك اضعاف الفريقين وفوز له عليهما ... وهم ابناء عرق واحد ووطن واحد ، ولو عقلوا واعتبروا بالعبر .. لكانوا على أمر جامع واتقوا شره مجتمعين لا متفرقين » .

هل من الممكن ازالة هذه العثرات وتحقيق هذه الوحدة ؟

يرى سليمان ظاهر ازالة هذه العثرات مضمونة اذا اتبعنا الخطوات التالية :

١ ـ الحذر من الوقوع في حبائل الاجنبي .

٢ ـ عدم تمكين الاجنبي في ديارنا بشركات استثمارية او ببعثات ثقافية وتبشيرية .

لذلك يقول : « فاذا كان لا مناص من احتياج حكومة الى شركات استثمارية والى معاهد ثقافية ، والعصر عصر مادة وعلم ، فلتفضل اولا الوطنيين على غيرهم ، فان لم يمكن فالعرب من غير المحكومين لها ، فان لم يمكن فليكونوا من الامم التي ليس لها غرض سياسي في بلادنا .

اما الثقافة فقد اصبح من الممكن لكل بلد عربي ان يولي وجهه في الثقافة ، وان لم تتمخض الى ثقافة شرقية عامة او عربية خاصة ، وان مصر ، وهي محط آمال الامة العربية ، واحرصها على صلة حديثها بقديمها العربي ، ثم الى سوريا وبغداد .. وبالجملة ان يقوم للعرب ثقافة متحدة البرامج » .

٣ ــ محاربة الحكومات العربية الدسائس الاجنبية المفرقة والمضعفة للوطنية بشتى الاساليب .

خامسا : والشرط الاساسي يتوافر بالحرية لتحقيق الوحدة فيقول :

« تتكون الوحدة بانشاء الجمعيات المختلفة الاغراض من سياسية واجتماعية وادبية وعلمية متكونة من ابناء المذاهب والاديان ، وتبادل البعثات العلمية بين ابناء البلدان العربية وبالاكثار من الصحف الدورية وغير الدورية ، وبتمحيص التاريخ العربي والاشادة برجال العرب في مختلف العصور ، ودرس شخصياتهم درسا عميقا على غرار ما يعني به الغربيون في درس رجالاتهم ، وبازاحة الحواجز الجمركية والسفرية بين ابناء الديار العربية ، وتسهيل وسائل التبادل التجاري والاقتصادي فيما بينهم . وباشعار النفوس العربية وجوب التضامن والتعاون سواء أكان ذلك في جلب المغانم ام كان في دفع المغارم ، وبعقد المؤتمرات لتقرير اساليب الدفاع مما يهدد بلادهم من الاخطار على مجموع بلادهم ام كان على جزء منها لا يتجزأ كفلسطين ، وتمثل مؤتمرهم الاخير في بلودان الذي مثل العرب افضل تمثيل ، وكان اضخم جواب على مؤتمر زوريخ الصهيوني واحكم رد مؤيد بالمنطق والعقل على التقسيم البريطاني المنبوذ الذي لا يقره العرب بل والمسلمون والمسيحيون لا شكلا ولا موضوعا » .

ويقترح ان يكون لهم مؤتمر عربي دائم سنوي معزز بالاموال والرجال وبمعاضدة الحكومات العربية ، وبان يقضوا على المنازعات المذهبية والطائفية . وبان يتولوا بانفسهم فصل خصوماتهم ولا يلجأون بها الى غريب ..

وان يعنوا العناية التامة باذكاء الروح العسكرية .. واستعمال الحلف العربي العراقي والنجدي والحجازي واليمني اما استواؤها على سوقها، واتيانها كلها فمتوقفان على ضم مصر وسوريا الى ذلك الحلف.

سادسا : انقاذ فلسطين .

الطرق العملية لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية ، هي الطرق العملية نفسها لانقاذ مجموع البلاد العربية وفلسطين جزء منها لا يتجزأ .. ومنها : « ان يقف العرب لا ابناء فلسطين وحدهم مثل ذلك الموقف المشرف الذي وقفته في دفاع اعدائها الانكليز والصهيونيين عن كيانها مدة ستة اشهر » ..

ومنها : « ان يتضافر ملوك العرب وامراؤهم كما تضافرت جماهيرهم وممثلو البلاد العربية في مؤتمر بلودان » .

وباختصار يرى : « ان الموجة القومية واليقظة العربية ،والتحالف العربي ، والشعور العربي المتحد بوجوب العمل المشترك للحياة الحرة والاستقلال التام ، كل ذلك من الطرق العملية لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونيين وغير فلسطين من براثن المستعمرين » .

وينتهي الى هذه الحكمة :

من اطاق التماس شيء غلابا   واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

الشاعر

غلب على شعر الشيخ سليمان ظاهر الطابع الوطني والطابع الديني.

وهو في المجالين يمتاز بنكهة خاصة . ففي شعره الوطني استشراف ذكي للمستقبل بعد تصوير حي صادق للواقع . هاتان الميزتان تجعلانه خالدا .

وهل نجد اصدق من سليمان ظاهر حين يقول :

اعامله تشقى ولبنان ناظر   وما من كمي عن حماها بدافع(١٢)
كأن لم تحركه مصارع فتية   (بحولا) (١٣) فلم يثأر لتلك المصارع
ايهدا لبنان ومنه جنوبه   فريسة انياب الذئاب القواطع
اذا دولة لم تحم شطرا مقوما   لها وهي عن سكانه لم تدافع
فما هي في ملك له بجديرة   وقد هالها حتى نقيق الضفادع

---

(١٢) سليمان ظاهر ، ديوان الفلسطينيات ، ص ١١٢ و ١١٣ .

(١٣) يذكر الشاعر بمجزرة حولا التي ارتكبتها العصابات الصهيونية عندما قتلت خمسة وسبعين مواطنا في هذه القرية .

ولعل اكثر ما آلمه التفرق الذي يسود الاسافل ويبيد الاقوام

شر البـــلاد بـــلاد بهـــا الاسافـل سادوا
فشـــا التفرق فيهـــا كمـــا استطـال الفساد
كأنمـــا القـــوم ممـــن ابقـت ثمود وعـاد (١٤)

ويرى بأن ائتلاف الناس ووحدتهم الحل الذي لا بديل عنه فيقول :

مطلب القـــوم وحـــدة لا انقسـام ونظـــام لا مبـــدل او بديــــل
وائتلاف علـــى اختلاف الديانـات لشعب قـــد وحدته الاصـــول
ان للقـــوم وحـــدة لا تجـزا لا ولا عقـــد حبلهـــا محلـــول
فرقتهـم سياســـة الغاصـب ألوثاب لا ذكرهم ولا الانجيــــل

وكما في مكان اخـر

لـــو عقلـــوا لآثـروهـــا دولـــة واحدة علـــى هزيـــلات دول

ويرى الاستعمار سبب الداء ولن يكون دواء :

مـــا دواء استعماركم بناجع فينا وذاك الـــدواء داء وبيـــل

ولا تغيب صورة المخادع عن ذهنه عندما يتحدث عن بريطانيا، يقول :

كـــم خدعـت متوجـــا واميـــرا عربيـــا بوعـــدك المطول

ويعجب كيف ننشد الحل خارج تراثنا ونحن ابناء من :

ملكـــوا الدنيـــا وفـــي احكامهـم ببنيهـــا عمـــد العـــدل اقامـــوا
لم يضع في حكمهم حـــق امرىء لا ولا في حكمهم قط اهتضام (١٥)

اذ ان العدل هـــو الاساس :

علـــى الدنيـــا واهليهـــا ، اذا بني السلم على الظلم ، السلام

ويعـــود بعدها الى القول بأن الخلاف هو سبب الفشل :

بخلعكم رأيـــا وقـــولا وعمـــل البستـــم امتكـــم عار الفشـــل

ويقارن بين الواقع الراهن وبين الماضي المجيد فيعجب:

كأنمـــا ما غلبـــوا كسرى علـــى ايوانـــه وعنـــه ينحـــط زحـــل
كأنما قيصر لم يخضـــع لهـــم لم تعـــه منهم حصـــون وقلـــل

وعندمـــا ينظـــر الى ساسة العرب ، يجد الفرقة نفسها التي تسود

(١٤) العرفان ، م ٤٨ ، ج ٧ ، ص ٦٣٧ .

(١٥) سليمان ظاهر، ديوان الفلسطينيات، ص ٥٦ .

كل بلـد تسود علاقات الاقطار العربية :
الى متي يا قادة العـرب النـزاع ؟ وما لشتيت بينكـم اجتمـاع
وايـة امـة فـي الارض عزت وعاثت فـي دياركـم الضباع
وايـة امـة فـي الارض عزت وليس لها على الخصم امتناع (١٦)

بالاضافـة الى هذا الشعور الوطني الذي يكره التمزق والتفرقـة والظلم والاستعمار والذي يتمنى الوحدة والعدل ، بالاضافة الى ذلـك نجد صدى الاحداث في شعره ، فعندمـا قصفت دمشق قال :

فـي الشام قوم اخاف الدهر أمنهم وروعتهم افانين السياسات (١٧)

وعندما سلخت تركيـا لواء الاسكندرون قال :

تاللـه مـا الاسكنـدرون غنيمـة للتـرك ان جاس العدو خلالها (١٨)

وعندما حلت نكبة فلسطين قال الشيخ سليمان :

متفرقيـن منازعـا ايدي سبـا والشمل منهـم ليس بالمتوحـد
ولهم مـن البتـرول مـا لقذيفـة ذرّية مـن قسـوة المتشـدد
ولـو انهم عقلـوا لكـان لهـم بـه مـن كـل خصم طاعـة المستعبد
لكنهـم قد اثـروه لنافـذ من مالـه بخزائن لـم تنفـد (١٩)

اذ ان شيخنا اول من دعا لاستعمال النفط كسلاح لتحرير فلسطين.

ولكثرة مـا لجأ العرب الى الامم المتحدة وقد كانت تسمـى بعصبة الامم ثم بهيئة الامم ، الا انه لم يـر في كثرة التسميات خلاصا للعرب اذ يقـول :

كلتـاهما مـا حققت امـلا للسلم فـي عرب وفـي عجـم (٢٠)

واما شعره الديني فدفع للتعصب الطائفي المقيت وعودة الى جوهـر الديـن الداعي للمحبة والسلام والوئام والائتلاف وفيه جراة لا تجارى .

فهو يسلم بالدينين المسيحي والاسلامي :

وما ضرنـي اني بديني مسلـم اذا كنت بالدينين جد مسلـم (٢١)

---

(١٦) المصدر عينه ، ص ١١١ .
(١٧) مجلة العرفان، م ١٨ ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ .
(١٨) سليمان ظاهر، ديوان الفلسطينيات، ص ٤٩ .
(١٩) سليمان ظاهر، ديوان الفلسطينيات، ص ١٠٧ .
(٢٠) العرفان، م ٣٦ ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ ــ ٣٩٥ .
(٢١) العرفان ، م٣٦ ، ج ١ ، ص ٨ ــ ٩ .

وبالتالي يعجب للمسيحي الذي يقتل اخا له ، يقول :

وقتل مسيحي بدينك مؤمن اخاه على علم ولم يتألم
وهل يرتضى دين يبارك لاعنا بقتل أخ من غير جرم ومأتم

ويلتفت الى دين طه فيقول :

وهل دين طه سنّ يوما لمسلم جفاء مسيحي وترويع مسلم
ويأبى لنا الدينان ظلما وجفوة وتقطيع اوصال لتحصيل مغرم (٢٢)

وينتهي الى القول :

سلام على موسى وعيسى واحمد مصابيح فيها ينجلي كل مظلم(٢٣)

وبالاضافة الى ان جوهر الدين موحد ، فان الوطن موحد ايضا ويرى بأن التفرقة اصطبغت بصبغة الدين ولكنها في الحقيقة ناتجة عن مصالح سياسية ، يقول :

داءان قد صرعاها داء فرقتها بالطائفيات مع داء الدويلات
وان عليهم قضى حكم السياسة في تقسيم وحدتهم جورا لوحدات
وان هم اختلفوا دينا فانهم في دين اوطانهم اخوان علات

ويصل الى جوهر المشكلة فيقول :

ولا يحيلوا على الاديان فرقتهم فما التفرق من شرع الديانات

والاقطار العربية تكمل بعضها بعضا في هذا الاتجاه :

ان كان لبنان عبرا للحضارة في الـ دنيا ففي الشام تحضير البداوات
وفي فلسطين للاديان قاطبة مشيدات محاريب التلاوات (٢٤)

بعد ان يتلمس حقيقة مشاكل الشرق المصطبغة بالتمزق الطائفي والقائمة في الاساس على المصالح السياسية ، يدعو للوفاق بقصيدة عنوانها الى الوفاق ، يقول فيها :

ناصحتما أمة صاحت بوحدتها نهبا وسلبا مثارات السياسات
وما افتراق بني الاديان لو عقلوا الا تراث سياسات وعادات
غاصت جماعاتها في بحر فرقتها وهي اليتيمة في عقد الجماعات
ضموا قواصيكم ، واسترشدوا بهدى اديانكم والعقول الالمعيات
واسترحبوا فيه ما في الشرق واحتكموا اليه لا لسواه في الخصومات

---

(٢٢) المصدر عينه .

(٢٣) المصدر عينه .

(٢٤) العرفان ، م ١٨ ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

مهلا بني الشرق ان الغرب صيـرة لخيل اطماعـه بعض المغارات (٢٥)

اما الجرأة التي لم نعهدها بغيره، فهي قوته في مخاطبة علي والصديق والفاروق على قدم المساواة عندما يقول :

خيـر صحب تركت فيهـا وآلا ما لهم مـن مشابـه ونظيـر
كعلي ومـن حـوى كعلـي فضل تصديقـه وفضل الوزيـر
وكمثل الصديق ثانيك في الغـار فرارا مـن سوء غـدر العشيـر
وكمثل الفـاروق ينصر دينـا جئت فيه اكرم به من نصيـر (٢٦)

لا بـد لنـا ختامـا من الاعتراف بأننـا لـم نف الشيخ سليمـان ظاهـر حقه ، ولم تفه بلدته النبطيـة حقه ، لم يفه لبنان حقه وقد تصدى للطائفيـة والتفرقة والاقتتال ولم تفه العروبة حقه وقد حمل رسالتهـا على منكبيه وتحمل في سبيلهـا ما تحمل ، ولم تفه فلسطين حقه وهو الـذي اول من تصدى للصهيونية والاستعمار ، الا اننـا قمنا بقسط من واجبنا علّ السامعيـن يتنادون لانشاء لجنـة تهتم بنشر انتاج الشيـخ سليمـان ظاهر وفيه التميز ، ونقيم له تمثالا في بلدته بعدمـا اقام في الافئدة .

---

(٢٥) العرفان ، م٧ ، ج٦ ، ص ٣٥٨ .
(٢٦) العرفان ، م٣٣ ، ج٤ ، ص ٣٧٠ .

محمد جابـر ال صفـا :

مـــؤرخ

الحركة العربية في جبل عامل في ظل حكم الاتراك والانتداب الفرنسـي.

بقلم : د/محمد مخزوم

مؤرخنا محمد جابر آل صفا (١٨٧٥–١٩٤٥) احد الاعلام الذيـن شاركوا في صياغة الحياة السياسية والاجتماعية والادبية لجبل عامل في مرحلة وصلت فيها مواقف الوطنيين من امثاله الى تكريس الخط التاريخي العام لهذه المنطقة في ظل الدولة العثمانية ووطأة التنافس الاستعمـاري بين فرنسا وانكلترا ثم اتجاهات الاحتلال الفرنسي لتشويه الوجه النضالي وطمس الشعارات والمطالب الاستقلالية تنفيذا لسياستها الالحاقيـة التي كرستها فيما بعد مشاريع التجزئة ومختلف انواع الاستغلال .

اكتسب الاستاذ محمد جابر ثقافته التاريخية من مطالعاته الواسعة ومشاركته في الاحداث، ومن ملازمته الدائمة علماء جيله الذيـن يعترف لهم بهذا الفضل ويخص منهم السيد محمد ابراهيم الحسيني الذي تلقى عنه اصول البيان والمنطق واللغة والاداب العربية .

والمخطوطة موضوع هذه الدراسة، محررة بيد الاستاذ جابـر نفسه وتعود الى سنة ١٩٣٤ وهي مستقاة مما قرأ من سفائن قديمة قمشها(١)

---

(١) التقميش : جمع الاصول . يقول ابو حاتم الرازي المتوفي (٢٧٧هـ) صاحب كتـاب طبقات التابعين ((اذا كتبت فقمش واذا حدثت ففتش)) انظر اسد رستم مصطلـح التاريخ ص ٣ (منشورات المكتبة العصرية الطبعة الثالثة ١٩٥٥) .

من بيوتات الاسر الاقطاعية الحاكمة ومما استطاع ان يسمعه من المعمرين الذين يذكرهم في كل حادثة يرويها فيذكر :

«ولا اقول انني وصلت لدرجة الكمال وبلغت الغاية من البحث لنقص بعض المستندات التاريخية. ولكنها اسس وضعتها، ومتفرقات جمعتها وفصول نسقتها بقدر الطاقة وقمت بما املاه علىّ الواجب نحو امتي وبلادي» (٢) .

وفي حديثه عن معركة كفرمان التي سمعتها وهو غلام عن شيخة هرمة يذكر انها حدّثت عن هذه المعركة قائلة :

«وكانت الفتيات تمد عسكر الشيعة بالماء والزاد، وتسير زرافات من فرقة الى فرقة تثير نخوة المقاتلة وحميتهم بالزغاريد والاغاني الحماسية كقولهن «وين راحوا اولاد ام علي ــ وين سياج العذارى ــ وين بني متوال يا عز الرجال» (٣) .

الا ان اهم ما يمكننا الاخذ به فعلا هو النصوص التي كتبها عن الاحداث التي شارك بها خلال العقد الاخير من القرن التاسع عشر حتى تاريخ تحريره للمخطوطة. ونظرا للدور الذي قام به الاستاذ جابر في تاريخ الحركة العربية في هذه الفترة، فقد ارسل له قنصل العراق في بيروت كتابا ومعه رسالة خاصة من ساطع الحصري مدير المعارف العام في المملكة العراقية سنة ١٩٣٢ يدعوه فيها الى كتابة ما لديه من الوثائق والمستندات والاراء الخاصة لادماجها في التاريخ العربي العام الذي اقرت الدولة العراقية تدوينه وفعلا قام مؤرخنا بواجب ارساله لكل الوثائق التي جمعها الى مدير المعارف العام في المملكة العراقية وهذا نص الجواب الوارد من مدير المعارف العام يشكره على ارساله الوثائق المتعلقة بالقضية العربية.

الى حضرة الشيخ محمد جابر المحترم.
بواسطة القنصلية العراقية العامة.
بيروت

«تسلمت رسالتكم التي تحتوي على الوثائق والمستندات المتعلقة بالقضية العربية شاكرا لكم معاضدتكم اياي بارسالكم هذه المستندات القيمة

---

(٢) الجزء المنشور من المخطوطة ص ٢٣ (منشورات دار متن اللغة) .

(٣) معركة كفرمان حصلت سنة ١٧٧١ بين الامير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان والعامليين الذين استفحلت قوتهم. وقد انهزم جيش الامير يوسف في هذه المعركة وقد اكدها الشيخ علي رضا انظر الجزء المنشور في المخطوطة ص ١٢٥ .

التي ستساعدني على انجاز مثل هذا المشروع الكبير. متمنيا لكم كل موفقية ونجاح ودمتم » .

التوقيع : مدير المعارف العام

ولا يسعنا اخيرا الا ان ننوه بان الجزء المنشور للاستاذ جابر تحت عنوان «تاريخ جبل عامل» (٤) كان وما زال مرجعا مهما لمعظم الباحثين الذين اثبتوه في هوامش ابحاثهم او كتبهم او رسائلهم الجامعية (٥) وهو اول كتاب في تاريخ جبل عامل بعد «امل الامل في تراجم علماء جبل عامل» وبعض المقالات التي نشرها الشيخ احمد رضا في العرفان وغيرها بعنوان «المتاولة في جبل عامل» كما سبقه الى ذلك ايضا الشيخ سليمان ظاهر في كتابته بعض المقالات بعنوان «معجم قرى جبل عامل وقلعة الشقيف التي كتبها في مجلة العرفان» .

كيف يؤرخ محمد جابر لجبل عامل ؟

اعتبر محمد جابر ـ كمعظم مؤرخي عصره ـ ان تاريخ جبل عامل هو تاريخ الاسرات الاقطاعية او الزعامات السياسية التي فرضت سلطتها على منطقة جبل عامل خلال العهدين المملوكي والعثماني. لذلك لا نجد في تاريخه سوى بعض الاشارات البسيطة التي تتناول التاريخ الاجتماعي بتفاصيله الدقيقة ما خلا بعض الاحداث التي تلت مباشرة الاحتلال الفرنسي للبنان واعلان دولة لبنان الكبير. كما يعتبر ان سلطة كبار العلماء على الزعماء الاقطاعيين كانت اقوى من اية سلطة اخرى بما فيها سلطة الحكومة العثمانية نفسها. اذ كان هؤلاء الاقطاعيون يتلمسون المغفرة والمشورة الدائمة منهم وهنا يذكر :

«لم يكن يجسر زعيم قط، مهما عظم شأنه وكبر مقامه وتوافر ماله وجنده على مناواءة او رد حكمة الذي لم يكن سلاحه وجنده الا تقوى الله والزهد والنزاهة والبعد عن زخارف الدنيا» (٦) :

والان كيف نستطلع تاريخ جبل عامل الحديث من خلال مخطوطة العاملي محمد جابر ؟

---

(٤) تاريخ جبل عامل : منشورات دار متن اللغة .

(٥) نذكر منهم على سبيل المثال الدكاترة وجيه كوثراني، زين زين، منذر جابر بالاضافة الى العديد من رسائل الكفاءة في كلية التربية ورسائل الماجستير في كلية الاداب الجامعة اللبنانية .

(٦) الكتاب المنشور ص ١٠٥ .

الدور الاول .

يقسم مؤرخنا تاريخ جبل عامل الى ادوار حكمت فيها اسر اقطاعية متعددة من آل بشارة الى الحكومة الوائلية، الى آل سودون ومشطاح، الى حكومة آل شكر . فالحكومة الاقطاعية الاولى انتهت بمقتل ناصيف النصار سنة ١٧٨٠ في معركة يارون ضد الجزار، والحكومة الاقطاعية الثانية بدات منذ ١٨٠٤ حتى ١٨٣٢ اذ ضم بعدها ابراهيم باشا البلاد الى الامير بشير الشهابي. واما الحكومة الاقطاعية الثالثة فقد بدات سنة ١٨٤١ حتى ١٨٦٥، وفيها زال الحكم الاقطاعي عن جبل عامل .

ويبدو ان مؤرخنا قد التبست عليه هنا لفظة «الاقطاعية» بدل استعمال «الملتزمين» او«المقاطعجيين» وان كانت هذه الالفاظ تنطبق على حكام جبل لبنان اكثر مما تنطبق على غيرهم .

الدور الثاني :

الحركة العربية في جبل عامل في عهد الاتراك .

حمل العامليون في اواخر العهد العثماني لواء الدعوة العربية وكانوا مع كل محاولة انفصالية يقوم بها العرب ضد تركيا . فتمثلوا في جميع المؤتمرات السرية التي عقدت لهذه الغاية. فبعد انتصار روسيا على الدولة العثمانية سنة ١٨٧٧ عقد في دمشق مؤتمر سري اشترك فيه كل من السيد محمد الامين (من شقراء) والحاج علي عسيران (من صيدا) والشيخ علي الحر (من جباع) وشبيب الاسعد الوائلي مع رواد الحركة العربية في اواخر القرن التاسع عشر واختار المؤتمرون عبد القادر الجزائري اميرا على سورية، ونقل القرار للامير احمد الصلح (والد رضا الصلح) الذي كان يمثل مسلمي الساحل :

«وكان المفتي العاملي السيد محمد الامين متطرفا في عروبته مجاهرا لفكرته السياسية يحرض العامليين على الثورة، ويراسل الامير الحسني في دمشق (عبد القادر الجزائري) بصراحة تامة، ويكتب على غلاف رسائله «دمشق دار الامارة». بالقلم العريض، واتصل الخبر بالوالي التركي فنفى السيد الامين الى طرابلس الشام» (٧) .

وعندما اخذ مدحت باشا الذي اراد برأي مؤرخنا «ان يستأثر

---

(٧) المخطوطة الجزء الثاني ص ١٢ .

بسورية ويكوّن منها امارة عربية يكون على راسها، حاذيا حذو محمد علي باشا في مصر» (٨) اتصل بزعماء جبل عامل وقرب اليه منهم خليلا ونجيبا الاسعد وغيرهما من الاعيان فولاهم الوظائف والرتب. وعمل هؤلاء على بث فكرة الانفصال بين العامليين، واعداد معدات الانقلاب.

وبعد ان خلع السلطان عبد الحميد نشطت الدعوة العربيـــة الى الانفصال وتألفت الجمعيات السرية لمتابعة السير في طريق القضيـــة العربية. ولما تحققت للعناصر غير التركية نوايا اعضاء جمعية الاتحـــاد والترقي التي تسلمت الحكم بعد ١٩٠٨» .

«كان العامليون اول من انسحب من جمعياتهم وشجب اعمالهـــم وابرقوا بذلك للصحف والهيئات الاتحادية المركزية» (٩) . اما عندمـــا اجتمع المؤتمر العربي في باريس بعد تأليف جمعية الاصلاح فـــي بيـروت كان للعامليين لائحة في جملة ما وضع من لوائح الاصلاح وهنا يذكر قائلا:

«وكنا في النبطية ثلاثة نفر، وهم الشيخ احمد رضا، والشيـــخ سليمان ظاهر وواضع الرسالة (نكون) شبه جمعيـــة سياسيـــة، تنظم القصائد والمقطوعات في مظالم الترك، وتبث بين الشعب العاملـــي فكرة الانتفاض على الحكومة ومناواتها والمطالبة باصلاح جبل عامل واعطائه الحكم الذاتي على طريقة اللامركزية» (١٠) .

ولما انشغلت تركيا في غمار الحرب العالمية الاولى، اغتنم الاحـــرار العرب هذه الفرصة ونشطوا للعمل على ايقاظ الحركة العربية. فاوفـدت جمعية الثورة العربية التي اتحدت مع جمعية اللامركزية الى جبـل عامل عبد الكريم الخليل الذي عمل على تأليف فرع للجمعية في صيدا ، وقـد تألف فرع اخر لها في النبطية من الشيخ احمد رضا والشيـــخ سليمان ظاهر ومحمد جابر في ٢٦ تشرين الاول سنة ١٩١٤ (١١) وعندما اكتشف

---

(٨) المصدر نفســه ص ١٣ .

(٩) المصــدر نفســه ص ١٤ .

(١٠) المصدر نفســه ص ١٥ .

(١١) المصدر نفسه ص ١٧. نشر جمال باشا ص ٢٥ احد بلاغات هذه الجمعية تحت عنوان الى العرب، بني قحطان : «ايها العرب عموما اعلموا انه تاسست جمعية فدائية تقتل كل من يقاتل العرب ويقاوم الاصلاح العربي، وما هو الاصلاح على مبدا الذي يطلبــه البعض مع التابعية لغلمان الاستانة، بل على مبدا الاستقلال التام وتاليف دولة عربية لامركزية، تعيد سالف مجدنا الغابر وتحكم البلاد بالحكم الذاتي في ظـــل مقاطعـــة

جمال باشا قائد الجيش الرابع امر الجمعية ونشاطها العروبي احال جميع اعضائها الى المحاكمة . ويذكر منهم مؤرخنا : الحاج نجيب بكار، وحسين اليوسف، ومحمد بزي، ومراد غلمية، واسكندر شديد، ونصر عودة من اهالي قضاء مرجعيون، والشيخ عبد الكريم الزين، والشيخ احمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، ومحمد جابر ومحمد الحاج علي، ويوسف الحاج علي من النبطية. والحاج عبدالله يحي الخليل والحاج اسماعيل خليل منصور، ورغم محاولات التهديد، فقد رفض الكثير من الذين استدعوا لشهادة الادلاء بمعلومات تدين نشاط الجمعية ضد الاتراك . فيذكر قائلا:

«ومما يجب التنويه به ولا يجوز اغفاله ان ثلاثة نفر من الشهود امتنعوا من الشهادة علينا برغم التهديد والوعيد وهم : راشد عسيران والشيخ عارف الزين والشيخ محي الدين عسيران، والاولان عرضا نفسيهما للخطر، وتحملا الارهاق والاذى» (١٢) .

وهكذا بات العامليون منذ ولادة الثورة العربية بقيادة الشريف حسين يعقدون الامال على هذه الثورة التي طالما تطلعوا اليها بمشاعرهم واحاسيسهم وشكلوا الفرق الوطنية المقاتلة لمناهضة الحكم التركي في منطقتهم، وقد اشتدت ثورتهم بعد ان تشكلت الحكومة العربية في دمشق. ووردت برقية من الامير سعيد الجزائري الى محمود الفضل في النبطية يخبره بتشكيل الحكومة ويفوض اليه ادارة الاحكام في النبطية وما يتبعها باسم الحكومة العربية. ونص البرقية اوردها محمد جابر :

«بناء على انسحاب الحكومة التركية قد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف، طمنوا العموم. وعليكم ان تعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية» (١٣) .

كما ارسل الملك فيصل السيد ايليا الخوري في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣١٤هـ رسالة الى كامل الاسعد يستحثه فيها على مهاجمة السواحل وطرد الاتراك منها ورفع الراية العربية في انحاء جبل عامل .

بما يليق بها. وتبدأ عملها بازالة وجود بعض الثعالب المتزلفين من العرب الذين كانوا اولا، وما يزالون، سببا لدوس حقوق العرب تحت اقدام اولئك الغلمان السفاكين، وسيرى العالم ذلك ما يشرعون في تنفيذ ما اعدوه لنا من المهالك» (مطبعة الوطنيين ١٣٣٤ هـ) .

(١٢) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(١٣) المصدر نفسه ص ٣٠ .

«وعندما جاء كامل الاسعد الى النبطية واجتمع بالاعيان فيها وتلا عليهم الرسالة صفقوا لها ابتهاجا وسرورا» (١٤) .

وعندما توج فيصل ملكا على سورية ذهب وفد عاملي بتفويض من اهل البلاد اشترك فيه السيد محسن الامين وعدد من علماء الشيعة في جبل عامل للقيام بمهمة التهنئة ويذكر قدري قلعجي ان الشيخ عبد الحسين صادق خاطب الامير فيصلا عند زيارته له «انني باسم اهل جبل عامل ابايعك على الموت» (١٥) .

تتفق هذه الروايات مع معظم كتابات المؤرخين المعاصرين الذين كتبوا عن هذه الفترة الا ان ما تمتاز به هذه المخطوطة عن غيرها هو كثرة الاسهاب في سرد الوقائع والتفاصيل الدقيقة التي حصلت في جبل عامل بالذات، حيث اغفلت من كتابات معظم المؤرخين غير العامليين . ففي تحليله مثلا لموقف كامل الاسعد من آل الصلح، ووشايته برضا الصلح لدى جمال باشا (كما ينوه بذلك جمال باشا نفسه في مذكراته) انما كان عن ثورة عواطف مقرونة بعدم التبصر بالعواقب وبتحريض فئة من الملتفين حوله رغبة منه بالانتقام من الزعيم المعروف رضا الصلح، ومن عبد الكريم الخليل. وما يلبث مؤرخنا ان يحلل ظاهرة العداوة بين الصلح والاسعد بقوله :

«ان كامل الاسعد لم يكن ينظر بعين الرضى لمنزلة رضا الصلح الممتازة في جبل عامل ويحسب ان تدخله في شؤون البلاد اعتداء على سلطته التقليدية. لذلك كانت سياسته في الجبل تصطدم دائما بسياسة رضا بك ويكون الفوز فيها غالبا للاخير واما كرهه لعبد الكريم الخليل فلأن هذا رشح نفسه للنيابة عن جبل عامل في البرلمان العثماني معتمدا على مساعدة بعض موظفي الدولة ولان كثيرين من اعيان الشيعة يمت اليه بصلة الصداقة والنسب، ولانه يدين بمذهب الشيعة الامامية، وكان كامل بك يحسب ان النيابة عن الشيعة في جبل عامل حق من حقوقه لا تجوز لسواه، مهما كانت هويته وكفاءته» (١٦)(١٧) .

---

(١٤) السيد محسن الامين : سيرته ص ٩٣ بقلمه واقلام اخرين تحقيق السيد حسن الامين (مطبعة العرفان ١٩٥٧ صيدا) .

(١٥) قدري قلعجي : جبل الفداء ص ٣٠٠ (دار الكتاب العربي بيروت ١٩٦٧) .

(١٦) المخطوطة ص ١٩ .

(١٧) المصدر نفسه ص ٢٠ ـ ٢١ .

الدور الثالث .

مرحلة الاحتلال الفرنسي .

بعد ان تبين للحلفاء بأن العامليين مصممون بكل عزيمتهم على المضي في دعم الحكومة العربية وتأييدها ، عينوا ضابطا فرنسيا يدعى فيجل لادارة حكومة صيدا وملحقاتها للعمل على تحويل الولاء نحو فرنسا بدل الحكومة العربية. ولما كانت وفود جبل عامل تتوالى على النبطية لاقامة اجتماع فيها ارسل فيجل عندها قوة عسكرية للنبطية في ١١ تشرين الاول ١٩١٨ نشرت اعلانا في الساحة العامة جاء فيه :

«باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة انكلترا وفرنسا والشرفاء يمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من اي نوع كانت، ومن خالف ذلك عد مسؤولا ومستهدفا للجزاء» (١٨) (١٩) .

وهكذا اخذ العامليون منذ اليوم الاول للسيطرة الفرنسية على مناطقهم يشعرون بأن الحلفاء يبيتون امرا ضدهم وضد مصيرهم،لانفرادهم بادارة البلاد وملاحقة الوطنيين الذين يجاهرون بفكرهم الوحدوي. فازداد الشعور بالسخط وعمت الفوضى في المنطقة وتشكلت العصابات الوطنية لمقاومة الاحتلال. وتجلى موقف العامليين بالاشتراك في المؤتمر السوري الذي عقد في ٢ تموز ١٩١٩ وتألف من اعداد متساوية من المندوبين الذين يمثلون جميع المناطق السورية انذاك، وكان الوفد العاملي الى المؤتمر يضم، «مراد غلمية» من مسيحيي مرجعيون (٢٠) وفعلا اكدت قرارات المؤتمر السوري على استقلال ووحدة سورية التي تضم لبنان وسورية وفلسطين وان يكون الامير فيصل ملكا عليها (٢١) .

وهكذا اشتد وهج الاتجاه الوحدوي مع سورية، بعد اعلان الانتداب في جميع انحاء لبنان (٢٢) وخاصة في منطقة جبل عامل الذي يرتبط ببلاد الشام بروابط متينة تعزز هذا الاتجاه عند ابنائه. ومع اشتداد

---

(١٨) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(١٩) المصدر نفسه ص ٣٢ .

(٢٠) قدري قلعجي المرجع المذكور ص ٣٠٥ .

(٢١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ٥٩٦ (ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٦) .

(٢٢) مسعود ضاهر : تاريخ لبنان الاجتماعي ص ٢٦١ وما بعدها (دار الفارابي بيروت ١٩٧٤)

ضغط الفرنسيين على اللبنانيين للقبول بصيغة الانتداب والمطالبة باستقلال لبنان خارج نطاق نفوذ الامير فيصل (٢٣) ازدادت حركات الوطنيين ضد الفرنسيين، وتشكلت العصابات ضد الجيش الفرنسي. فعمد الفرنسيون عندها الى تشجيع قيام عصابات السلب والنهب مع التشييع بانها من تدبير الحكومة العربية بدمشق. مما ادى الى سيطرة جو من القلق والخوف دفع بالكثيرين الى ترك قراهم وديارهم في جبل عامل (٢٤). ويعلق محمد جابر على ذلك قائلا :

«استاء الناس واشتد سخطهم لانفراد الحكام الافرنسيين بادارة البلاد وراجت سوق الجواسيس. وكثرت تقاريرهم بحق احرار الوطنيين الذين نالهم الارهاق في العهدين : عهد الاتراك وعهد الافرنسيين، واصبح الناس ذات يوم في النبطية واذا بعشرات الاعلانات والمناشير الثورية الصقت على جدران الاسواق والمعابد وسرايا الحكومة ومقر الجند وعلى باب غرفة الحاكم ومآلها حض الناس على مقاومة الافرنسيين وطردهم من ربوع جبل عامل ورفع الراية العربية» (٢٥) .

وفعلا دعي محمد جابر لمقر الحكومة واوقف بتهمة وضع تلك المناشير الثورية « وبسبب هذا التوقيف حصل اضطراب في البلدة ، وكان ان يقع ما يسر الفرنسيين، لولا ان الحاكم اطلق سبيلنا بعد توقيف ساعتين على ان نثبت وجودنا في كل صباح في سرايا الحكومة وان لا نبارح البلدة» (٢٦) .

ازاء الاستياء العام من تصرفات الفرنسيين ضد الاحرار في جبل عامل دعي اعيان البلاد والعلماء والمفكرون وزعماء المقاومة الوطنية الى عقد مؤتمر عام بالقرب من منطقة النبطية في وادي الحجير (مجرى نهر يقع على بعد خمسة عشر ميلا من النبطية لجهة الجنوب) لتحديد موقف الزعماء من الوحدة مع سورية .

---

(٢٣) زاهية قدورة : تاريخ العرب الحديث ص ٣٠٤ (دار النهضة العربية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧١) .

(٢٤) الشيخ احمد رضا : مجلة العرفان . مجلد ٣٣ ص ٢٥٢ وجريدة البشير عدد ٢٥٦٣ نيسان ١٩٢٠. اما عن مدى فاعلية العصابات وقدرتها على تصدي الفرق الفرنسية انظر امين سعيد الثورة العربية الكبرى في عدة امكنة) .

(٢٥) المخطوطة ص ٣٣ .

(٢٦) المخطوطة ص ٣٤ .

م - ٦

وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ حضر المدعون الى مكان المؤتمر حيث تجمعت الوفود الشعبية من كل مكان. ولما كان تجمع الحجير قد ضم عناصر كثيرة من زعماء العصابات الوطنية المناهضة للاحتلال الفرنسي كصادق الحمزة وادهم خنجر، فان المؤتمر قد عقد في جو من العداء للفرنسيين (٢٧) كما ان مكان انعقاد المؤتمر في وسط منطقة جبل عامل، وفي مكان محايد بالنسبة (للزعماء). بعيدا عن سلطة الفرنسيين يشير ايضا الى اهمية القرار الذي سيتخذ ضد فرنسا. وفعلا اصدر المجتمعون قرارا بالاجماع، يذكر محمد جابر ملخصه على الشكل التالي :

«ان المؤتمرين قرروا بالاجماع انضمامهم للوحدة السورية والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكا على سوريا، ورفض الدخول تحت حماية او انتداب الفرنسيين» (٢٨) .

وانفض الاجتماع بعد ان فوض السيدان عبد الحسين نور الدين وعبد الحسين شرف الدين بالسفر الى دمشق ورفع القرار للحكومة السورية .

ومع ان قرار المؤتمر لم يكن موجها ضد المسيحيين في منطقته جبل عامل، ولو كانت نقطة ضعفه عدم اشتراكهم فيه الا ان ما حدث بعد المؤتمر من الشغب كان ولا شك مدسوسا على الفكر الوطني. اذ ان بعض المنتفعين لدى الحاكم الفرنسي اثاروا بدافع من الفرنسيين بان المؤتمر عقد للتنكيل بالمسيحيين، واخذوا يحرضون القرى المسيحية في جنوب جبل عامل على مناواة الشيعة. حتى يستطيع الفرنسيون بعدها التدخل، وتثبيت انتدابهم تحت هذا الغطاء. وهنا يذكر محمد جابر :

«ان الرئيس وكبار العلماء نادوا بلزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور والمحافظة على اموال واملاك المواطنين المسيحيين وارواحهم ودفع الاذى عنهم. وانذر المعتدون والمخالفون بشر الجزاء» (٢٩) .

وعلى الرغم من بعض الاحداث المسيئة التي حصلت بعد مؤتمر الحجير. فان العصابات الوطنية التي لم يسجل لنا تاريخها اية حادثه في هذا الشأن، قد شرعت في مقاومة الجنود الفرنسيين ومهاجمتهم في جميع المناطق. وهنا يذكر :

---

(٢٧) منذر جابر : رسالة كفاءة غير منشورة (الجامعة اللبنانية كلية التربية ١٩٧٣) .

(٢٨) المخطوطة ص ٣٥ .

(٢٩) المصدر نفسه ص ٣٥ .

«ولما تفاقم الامر وعظم التذمر واصاب اذى الثوار عساكر المحتلين الذين كانوا ينقلون الذخائر والمؤن من صيدا وبيروت الى القوى العسكرية المرابطة في النبطية ومرجعيون وحاصبيا، حيث هاجموهم بالقرب من مزرعة مصيلح بين صيدا والنبطية واثخنوا بشرذمة كانت تحرس جسر الخردلة بين النبطية ومرجعيون وحاولوا نسف الجسر بالديناميت وتغلبوا على العساكر في جبل رياق من جهة المطلة جنوبي مرجعيون في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٠ وهاجموا عساكر المحتلين في جديدة مرجعيون ففر سكانها المسيحيون الى النبطية. فلاقاهم اهلها بالترحاب واقاموا شهرا على الرحب والسعة حتى هدأت الاحوال، فعادوا شاكرين ونشروا بلاغا في صحف بيروت يعرب عن ارتياحهم من عطف الاهلين مدة اقامتهم في النبطية » (٣٠) .

وامام تفاقم الثورة في جبل عامل ضد الاحتلال الفرنسي جمع الكولونيل نيجر علماء جبل عامل واعيانه في دار الاسقفية الكاثوليكية في صيدا والقى عليهم على مسمع من اكليروس المسيحيين ووجهائهم خطابا تضمن التهديد والوعيد، ثم اجبرهم على امضاء وثيقة وتعهد بالمواد التالية:

اولا : دفع مابة الف ليرة عثمانية ذهبية غرامة حربية وتعويضات.

ثانيا : التعهد باعادة الامن وتسليم المحكومين للحكومة .

ثالثا : اعادة المسيحيين الفارين الى قراهم والمحافظة والتعويض عليهم (٣١) .

اما عن موقف العامليين من الانتداب الفرنسي فقد عبروا عن رفضهم له عندما قدمت اللجنة الاميركية المعروفة بلجنة كراين لاستفتاء السوريين في بيان رغباتهم ومصيرهم :

«وكان وفد المسلمين الشيعيين مؤلفا من نحو مائة ذات بين عالم ووجيه، وقد صرحوا كلهم بلسان واحد برفض الانتداب الافرنسي والانضمام للوحدة السورية. وطلب الاستقلال التام الناجز تحت لواء جلالة الملك فيصل ملك سوريا، وسلموا اللجنة وثائق خطية ووكالات عامة من جميع الشيعيين، تشعر برغباتهم وتؤيد ذلك وفودهم في بياناتها » (٣٢) .

---

(٣٠) المصدر نفسه ص ٣٧ ايضا وجيه كوثراني.. الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ص ٣٣٨ (معهد الانماء العربي بيروت ١٩٧٦) .

(٣١) المخطوطة ص ٣٨ .

(٣٢) المصدر نفسه ص ٤٠ .

وهنا يختتم مؤرخنا هذا الدور بقوله :

«وما برح العامليون حتى ساعة تدوين هذه الحقائق الواضحة (١٥ نيسان ١٩٣٣) متمسكين اشد التمسك بهذه الخطط المثلى، وما زالوا يقدمون الدليل تلو الدليل على ثبوت هذا المبدأ القويم في نفوسهم، يجاهر شبانهم وكهولهم في كل محفل وناد وعلى صفحات الصحف بنزعتهم العربية، ومتابعة السير في طريق الوحدة العربية الكبرى ولم يعقد مؤتمر سوري ولا نظم اجتماع قومي عربي الا وكان ممثلوهم في الطليعة يجاهرون بالاحتجاج على وضعية البلاد الحاضرة والالحاق القسري بلبنان ويطالبون بالانضمام الى الوحدة السورية بعزم وثبات، ولولا ظروف قاهرة اقضت مضاجعهم واضعفت اقتصادياتهم وطوحت بابنائهم وزهرة شبابهم في الهجرة لطلب الرزق الى ما وراء البحار لما سكتوا» «بصورة مؤقتة» على حالة لم تألفها طباعهم ووضعية شاذة نفرت منها نفوسهم» (٣٣).

لم يرفض العامليون اذن قيام «دولة لبنان الكبير » الا لكونها ستارا للاحتلال الفرنسي. ورغم ان الفرنسيين كثيرا ما لوحوا لهم بدولة الطوائف التي يشكلون فيها نسبة كبيرة، الا ان نزعتهم القومية الصميمة جعلتهم يتجاوزون الفكرة الدينية الضيقة لهذا فان مطلبهم الوحدوي كما كرسته قرارات مؤتمر الحجير وغيره من المؤتمرات لم يكن مطلبا انفصاليا عن لبنان. كما حاول البعض ان يفسره. لان موقف العامليين كان موقفا عاما معارضا لنوايا السياسة الفرنسية بتكوين دولة لبنان الذي اعلنه الجنرال غورو كبيرا في ايلول ١٩٢٠ واتبعه باعلان اخر في ٨ ايلول اي بعد مرور اسبوع واحد على تكوين «دولة لبنان» مولد دولة اخرى في القسم الشمالي من سورية هي «دولة حلب» فجاء رد العامليين العفوي ضد مشاريع التجزئة التي باشرتها فرنسا في المنطقة مباشرة بعد ميسلون التي عبرت عن الموقف الفعلي لاماني العرب الوحدوية .

وفي هذا الصدد يذكر ساطع الحصري «ان تجزئة سورية بهذه الصورة الى العديد من الوحدات السياسية. اوجدت استياء شديدا في مختلف انحاء البلاد. وحملت الهيئات الوطنية الى تقديم العديد من الاحتجاجات فضلا عن ذلك، انها ولدت كثيرا من المشاكل الادارية والعملية » (٣٤) .

---

(٣٣) المصدر نفسه ص ٤٠ – ٤١ .

(٣٤) ساطع الحصري يوم مسلون ص ٤٠٦ (منشورات الاتحاد ١٩٦٤ بيروت) .

هكذا يؤرخ محمد جابر لجبل عامل انطلاقا من ان مصير المنطقة ماضيها وحاضرها مرتبط ارتباطا مباشرا بالمنطقة العربية سواء كان لهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية او رفض الاحتلال الاجنبي بكل وجوهه. ففي صميم المعركة التي كان يخوضها ضد العثمنة لم يغفل دور الانكليز والفرنسيين في التحريض على الدولة العثمانية وترويج المعلومات عنها بقصد تفكيكها عن طريق المشاحنات الداخلية واثارة العواطف الاستقلالية، فنراه يعلق على ذلك قائلا :

«لا بد من القول ان بعض المتشغلين في القضية العربية لم يكن مخلصا لها كل الاخلاص وانما كان يسير على خطة مدبرة كان الغرض منها خدمة فكرة اجنبية ولذلك رأيناهم عندما تم الانفصال وتقلص ظل الحكم التركي ينقلبون لمهاجمة العرب وتمزيق وحدتهم وشل حركاتهم وقد انشأوا لهذه الغاية الصحف والمجلات. وانبرت اقلامهم في هذا السبيل تفتري على التاريخ وتمسخ الحقائق وتشوه سمعة العرب» (٣٥) .

ولا بد لنا اخيرا من ان نذكر فضل مؤرخنا على الحياة الاجتماعية العاملية برمتها، اذ نجد في الجزء المنشور من المخطوطة سجلا باسماء المدارس التي تأسست في جبل عامل، ومشاهير العلماء والشعراء والادباء العامليين والجمعيات العلمية والادبية التي اسسها العامليون واشترك بنفسه في تأسيسها، فشكل مع زميليه الشيخ احمد رضا والشيخ سليمان ظاهر نواة النهضة الادبية والاجتماعية والسياسية في جبل عامل في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين .

---

(٣٥) الكتاب المنشور ص ١٧٥ .

الشاعر عبد المطلب الامين

بقلم : محمد علي مقلد

احد الذين عرفوه عن قرب، حين طلب اليه ان يختار لعبد المطلب من بين مواهبه لقبا، راح يحصي : الشعر، الشريعة، القانون ، السياسة والحقل الدبلوماسي، النقد والصحافة ... الخ ثم اختار له لقب المفكر، واردف : نعم لقد كان مفكرا، منظرا، بل لقد كان مجتهدا، وربما كان احد كبار المفكرين، احد ادمغة سوريا في ايامه، مع انه لم يتخصص في ميدان معين ولم يحجز ثقافته في حقل واحد من الحقول .

احد اصدقائه السوريين قال فيه : «كان عبدالمطلب نموذجا فريدا للمواهب المتجمعة في شخص» وقال «نحس فيه ان ما فقدناه لا يعوض».

وقال عنه حسن شرارة : «يوم يولد تولد دنيا جديدة لا تخوم لها ولا حدود ... ويوم يموت، تموت طيون ابداع وادوات خلق ومفاتيح رؤى... يموت الفكر الحالم المتوقد ... والوجدان المتفتح ... تموت الطيوف والرؤى .

ولقد قيل فيه الكثير واجمعت الاقوال دون استثناء على ان عبد المطلب شخص هفت اليه الاسماع وانشدت اليه الاذهان وكانت تميل القلوب حيث يميل ... والذين عرفوه كان الواحد منهم في حالة دائمة من الانتظار الى ان يأتي عبد المطلب .

على ان لكل لقب، اي لكل موهبة، ولكل وظيفة نوعا من العلاقة

مع الناس واذا تنوعت وتمايزت علاقات الشاعر والقاضي والناقد والصحافي والسياسي فلان نافذة الشاعر على جماهيره هي نافذة صاحب الموهبة والشفافية والخيال ومن خلالها يحكم على الشاعر انه يرى ما لا يراه الاخرون وبصره يخترق الحجب ولسانه يعزف على اوتار القلب ... و ... و .. و .. ، والصحافي امام جماهيره قابض على السياسة دون ان يغرق فيها ملكة الفضول عنده كسلاح الهندسة في الجيوش، يتبعها على الخيط ويعود من الكواليس ليجد الاذان في انتظاره ... شأنه شأن الشاعر يعرف ما لا يعرفه الاخرون، او على الاقل، هكذا كان شأنه منذ عقدين وما سبق .

والقاضي، في قلمه اللحظة التي يميز فيها بين الاسود والابيض الجريمة والبراءة، السجن والحرية، وذاكرته خزانة لغرائب الناس ومساكينهم، اشرارهم وعقلائهم، وهو جزء من السلطة محاط بمهابتها، ينهار لقبه اذا انهارت، ولكن اذا قويت وتماسكت فويل لمن يقع فريسة القانون ...

والسياسي كما قال الشاعر : واحد يملك الشرفات واخر يملك الحبال، واحد يملك اللآلىء واخر يملك النمش والتواليل ... واحد السفن واخر الامواج ... ولكل منهما طريقه الى القلوب ولكل منهما موقع واثر ، واحد يجيب الذين يسألون : كم الساعة الان ... والاخر يعرف كم ستكون الساعة ... واحد يصنع زعامته بين الرؤساء والوزراء والسفراء ويصفع بها وجوه الناس واحلامهم ، واخر يمشي على خط طويل يمتد بين الحي الشعبي او المدرسة او المعمل وبين ساحة واسعة اسمها حركة التحرر، ويختار حيث يستطيع موقع الزعامة اي القيادة ويمنحها للذين ينضحون عرقا ونضالا ..

والناقد في لغة الحروب مثل القناص يصوب من بعيد، يصوب عبر نافذة ضيقة، باتجاه الناس فيطل عليهم «بالمفرق» بينما السياسي او القاضي ... «بالجملة» .

... وكيف اذا اجتمعت هذه الالقاب والصفات والوظائف والمواهب في شخص واحد وكيف اذا كان هذا الواحد عبد المطلب الامين. اجل هو نفسه الذي حشد في داخله سياسيا وقاضيا وصحافيا وشاعرا وناقدا ومحاميا وغلف هذه الجوانب ووحدها وصهرها واخرج منها شخصا ليس بالقاضي ولا بالشاعر ولا بالمحامي ولا بالسياسي ولا بالصحافي ... بل هو من كل واحد من هؤلاء زبدته وقد تقمصت انسانا يتقن ترجمة

معارفه ومواهبه بالمرح الدائم والنكتة المبتكرة .

وقد يكون مفاجئا للبعض اعتبار جانب المرح واتقان فنون الضحك والدعابة اللطيفة والفرح الجاهز دوما والمستخرج دوما من اي شيء، من اية وظيفة، من اي موقع او موقف او شخص او حدث او خبر او حركة ... اهم جوانب شخصيته ، اجل اهم ما في عبد المطلب موهبته في تجميع المواهب وموهبته في توزيعها على الناس عبر اقرب الطرق واسهل السبل واكثرها امتاعا ... قد نجمع على احترام عدد من الاشخاص وعلى محبتهم لكننا لا نحبهم ولا نحترمهم بنفس المضمون وعلى نفس الطريقة ، وقد تكون اساليب تعبيرنا واحدة وادوات تعبيرنا واحدة لكننا حيالهم كمن يعزف تنويعات على الة موسيقية واحدة ... اي نوع من العزف كانه عبد المطلب؟ كلما وجهت هذا السؤال لاحد ارتبك لانه لا يحسن اختصار عبد المطلب بالكلام انه شخص لا يجوز اختصاره .

اراني امدح عبد المطلب الامين اكثر مما اقدمه او اعرِّف به، انني في ذلك اترجم مواقف الذين سألتهم عن عبد المطلب. كلهم اجمعوا على ان من الطبيعي بل ومن الضروري ان يكون موقع عبد المطلب افضل مما كان ... وان يكون دوره اكبر مما كان، وان تكون مكانته الرسمية اكثر رسوخا وبروزا وشهرة وتأثيرا .. .

كلهم دون استثناء اتفقوا اذن على امرين :

- الاول هو ان امكاناته ومواهبه كانت كبيرة وكبيرة جدا.
- الثاني ان موقعه في تاريخ بلاده لم يكن موازيا لتلك الامكانات.

اما ان امكاناته كانت كبيرة ومتعددة فذلك امر لا شك فيه، كما انه لا شك في الدور الكبير الذي كان لنشأته في بيت ذي مكانة في تاريخ جبل عامل وبلاد الشام وفي تاريخ الفكر الشيعي الحديث، عبد المطلب هو ابن العلامة السيد محسن الامين وهو من هو في المجال الديني والفكري والسياسي، انه احد المراجع الكبرى في زمانه في الدين كما في المواقف الوطنية .

وانطلاقا من هذا المنشأ تهيأت الظروف لعبدالمطلب الامين كي يكون في عداد الرعيل الاول من المتعلمين والذين تابعوا دراستهم (حمل اجازة في الحقوق عام ١٩٣٩) وقد اتقن الى جانب العربية الفرنسية والانكليزية والروسية والفارسية واتيح له ان يتخرج من بيت غريق بالثقافة تخصص في جانب مهم من التراث التاريخي والديني ...

على المستوى الثقافي العام استطاع عبدالمطلب اذن ان يستفيد من

منشأه الاكاديمي والبيتي والوظيفي ليتكون في داخله جانب من شخصية رجل الدين المحدث، العارف بشؤون الاولياء والصحابة الناقل لاخبارهم وسيرهم، الملم بشؤون القرآن وتفسيره .. الى اخر ما يوفره الجو العام في بيت العلامة السيد محسن الامين ... وليتكون في داخله نموذج المثقف الجديد الذي لا يكتفي بالتراث بل يميل الى حضارة الغرب ويطلع على بعض اثارها من خلال اللغات التي يتقنها ..

وليتكون في داخله نموذج يجسد المجتمع الجديد الذي يخطو من العلاقات الدينية الاقطاعية الى العلاقات المدنية الراسمالية .

وهكذا بدا عبدالمطلب بثقافته نموذجا للجديد الذي بقي على صلة وثيقة بما كان سائدا في الذاكرة الشعبية من التقاليد والعادات والافكار والقيم .

وعلى المستوى الادبي لا سيما الشعر كان عبد المطلب، شاعرا، بل لقد كان واحدا من الشعراء الاربعة ابناء السيد محسن الامين : واخوته هاشم وحسن وجعفر .. نعم كلهم في بيت العلامة ينظمون الشعر . وعبد المطلب عرفت عنه غزارة انتاجه فكان الشعر يتدفق منه لانه قابض على ملكة الكتابة الفنية ممتلك لادوات تلك الكتابة واولها اللغة وفوق ذلك بل وفي اساسه موهبته وحساسيته ...

يذكر من يعرفه انه كان يكتب شعره على الهامش الابيض من صحيفة بين يديه او على علبة السجائر، يكتبه في الاماكن العامة، في سيارات النقل واحيانا كان يكتب وهو على كرسيه وامام الطاولة. كان بمقياس ما، حسب احدى المجلات السورية، اشعر الناس .

على مستوى القانون والشريعة فقد عين لسنوات قاضيا وعمل لسنوات اخرى محاميا ... وكان يأتيه طلبة العلم في القضاء او في المحاماة، احد هؤلاء وكان مثل غيره من المعجبين كان يعتبره دائرة معارف ... هذا هو شأنه في القانون المدني، وكذلك كان في مجال القانون الديني او الشريعة ومراجعه في ذلك الكتب الاسلامية وتاريخ اهل البيت وهو من المتأثرين بهم والمعجبين .

على المستوى السياسي امكاناته ايضا كبيرة ومواهبه كبيرة . فعلى الصعيد الرسمي عمل عبدالمطلب سفيرا لسوريا في موسكو وكان سفيرا ناجحا بشهادة مسؤوليه ... يروي زهير مارديني بعض الحوادث التي تؤكد ذلك (مع الجابري رئيس الوزراء) وقيل انه احد مؤسسي وزارة الخارجية السورية ... وعلى الصعيد الشعبي عرف بمواقفه الوطنية

الدائمة دون خوف وبلا حساب لاية ردة فعل ... من القضايا المطلبية ، الى القضايا السياسية والموقف من السلطة والرؤساء والوزراء، الى القضايا القومية والموقف من القضية الفلسطينية والوحدة العربية ... الخ كان لعبدالمطلب مواقف وطنية معروفة في كل مجال ...

واخيرا وعلى مستوى الكفاءات الشخصية والمواهب والمزايا الذاتية يجمع الذين يعرفونه على انه انسان حاد الذكاء، كثير الاستقامة والصدق، كثير التواضع بارع في تكيفه مع جميع فئات المجتمع من الفلاحين وابناء الريف الى الدبلوماسيين واجواء الارستقراطية ... والى جانب ذلك كان يمتلك مهارة فائقة في صنع المرح وابتكار الضحكة واستحضار النكتة وكان لا يوفر، في ذلك، اي شيء، وفي اساس كل ذلك قدرة على الاستيعاب مدهشة .

هذه الامكانات الكبيرة لم يكن لها ما يوازيها على المستوى الرسمي. فحيث كان من المفترض بهذه الامكانات ان تدفع باسم عبدالمطلب الى سجل الشهرة كواحد من المؤثرين والفاعلين في تاريخ بلادهم السياسي والثقافي والادبي لم يتوفر لهذه الامكانات والطاقات ما يدفعها نحو وتائرها الاخيرة بل، وعلى العكس من ذلك منيت هذه الامكانات بمن لا يحسن تقديرها وبدأ عبدالمطلب يغرد خارج سربه منذ ولادة اولى الانقلابات في هذا العالم العربي على يدي حسني الزعيم ... فمع مجيء هذا الرجل انقطع النشاط الدبلوماسي وتضاءلت احتمالات تجدده .

تذكر المكتبات والمطابع، ويذكر القراء اسم بدوي الجبل، اسم نزار قباني بينما بقي عبدالمطلب خارج التداول مع انه عاش معهما في فترة واحدة، واشتغل مع بدوي الجبل مثلا في حقل التعليم في العراق، وربما كان في احد جوانب العمل الفني اغزر نتاجا ... هكذا شأنه في ميدان النقد وفي ميدان الصحافة وفي ميدان الفكر، في التشريع، في الحقل السياسي ... نتداول اليوم بعض شعره الذي جمعه له شقيقه الاستاذ حسن الامين ونندفع الى الاعتقاد ان ما يحكيه عنه شعره لا يوازي ما يتداوله البعض ممن عرفوه بل وندفع هذا الاعتقاد قليلا الى الامام لنرى بينهما هوة لا يردمها الا البحث الجاد والمعمق في تفاصيل عبدالمطلب مبتدئين من دمشق حيث ولد ونشأ ودرس وتعلم وتخرج حاملا اجازة في الحقوق، وبالتحديد نبدأ من بيت العلامة السيد محسن الامين وننتهي في شقرا، قريته الجنوبية معرجين على الميادين التي عمل فيها : سفيرا لسوريا في موسكو، معلما في دار المعلمين في بغداد، موظفا في وزارة

الخارجية السورية وواحدا من مؤسسيها، قاضيا في لبنان، محاميا في الكويت ، صحافيا في صحف دمشق بتوقيع القاضي الفاضل، وفي جريدة النداء في بيروت، موظفا في وزارة الدفاع (رئيس قسم التوجيه) في سوريا حتى النكسة ١٩٦٧ ... وما تبقى من حياته قضاها في بيت متواضع في منطقة النهر في بيروت وفي بلدته شقرا .

يستوقفنا في عبد المطلب الامين انه كان قاضيا ومحاميا وصحافيا وناقدا وسياسيا .. الخ على صورة ابتكرها لنفسه وعلى مثال يجمع الفرادة مع ما في الفرادة من جوانب التألق او جوانب الانكفاء. واذا لم يكن الشعر ابرز مظاهر هذه الفرادة فانه نموذج ونتاج لشخصية تكونت خارج هيمنة الطراز السائد. كتب شعرا كثيرا ولكن صحف زمانه ومجلاته كانت خلوا من اي بيت او اية قصيدة من قصائده، كتب كما لو كانت الكتابة عنده فيض لا يرد عطاؤه وكما لو ان الشعر عنده عمل عادي وطبيعي كالتنفس لا يستوجب اهتماما كونه، بالنسبة اليه، عملا تلقائيا جاهزا للممارسة على الدوام .

ان بعض المقاييس الفنية تمنحه بامتياز صفة شاعر في وقت تلجأ مقاييس اخرى الى التقليل من اهمية شعره. فهو من جهة قابض على مجموعة من العناصر الضرورية للانتاج الفني ومنها لغته التي لا شك بتملكه لها اطلاعا على التراث الديني، تراث اهل البيت، التراث الشعري القديم ومن عناصر الانتاج الشعري المستوى الفكري والثقافي الذي تمتع به والذي قال عنه احدهم اعجابا : انه دائرة معارف، ومنها وضوح الموقف من الاحداث ومن القضايا ومن المواضيع ومن العلاقات، وقد كان في هذا المجال صاحب موقف لا يتأخر عن اعلانه مهما كانت الظروف معاكسة .

اما مواقفه من الحياة والموت والحب والزمن .. الخ فيمكن استخلاصها مما توفر بين ايدينا من اشعاره وكذلك مواقفه من القضايا السياسية الوطنية والقومية والاجتماعية .

الحياة كلها لم تكن في نظره الا محطة ، لم تكن هدفا لم تكن الا اضافة كمية ونوعية على التاريخ فقيمتها اذن في حجم ما تضيف لا في حجم ما تأخذ :

ودروب الحياة مهما استطالت ... هي في خطونا الملح دروب

او :

تضاءل العمر وانهارت مهابته ... حتى استحال تساجيعا واوزانا

والحياة من هذه الزاوية لمح من الحوادث تتراكم بتناقضاتها وتتعاقب تفاصيلها ليضيع العمر بين هذه التفاصيل :

تبا له الزمن الواهــي فمر بهـا مر الكرام : عيون اوصدت وفـم في حياته اليوميـة ، في تفاصيل العلاقات الاجتماعية كان ضاحكا مرحـا وفي شعره وجه آخـر لهذا الفرح الحياتي . في شعره كآبـة ويأس واشمئزاز ونفور وقرف ... نفس الاشياء التي يترجمها ضحكـه ونكته امام الناس كان يترجمها في شعره شكوى وتذمرا، المقاييس المختلة بل القيم المختلة اضحكته وابكته في آن معا. يقول في قصيدة :

الى ايـن يمضي بنـا ركبنـا عنيفا لجوجـا على عمرنـا
وحتام يعصف فينـا القضـاء وتودي الريـاح بأسمالنـا
اكنـا من الكـون العويـة وهل ابـدع الكـون الا لنا
ومن ابدع الكـون ؟ حاشا الاله ايهـوي الى لهـو اطفالنـا
وحتى الصغـار اذا مـا لهـوا ففي لهـوهـم دفقات المنى
ونحـن الكبـار بآمالهـم صغـار بخيبـات آمالنـا
صغار لانا بعـرف الحيـاة نفلسف اسفـاف اوهامنـا
ونزعـم انـا كبـار النفـوس ولكـن واقعنـا خـاننـا
ومن ساقنـي للنفـاق الدنـي على النفس مشكلتـي ام انـا
ومن ذا يجيـب عـلى سؤ لنـا اصمت المقاديـر أم صمتنـا
مللنـا انتظـار الجواب المريـب فكنـا الجـواب على سؤ لنـا

ان تراكم هذه التساؤلات هو بحد ذاته دليل على شكوى داخلية عميقـة : الى ايـن ؟ وحتام ؟ أكنا ... وهل ؟ ومن ؟ ..

ويختم ابياته بخيبات الامل وباسفاف الاوهام وبالانتظار الممل .

في قصيدة اخرى نظمهـا كمـا يبدو في اواخـر حياته يحشد عددا من المفردات يكفـي مجرد استعراضهـا للتأكيـد على انزعاجه الشديـد من القيم المختلة تلـك :

ضلال العمـى وضـلال البصر وحمى الحـلال وحمـى السفـر
ودفء الضياع ودفء السكـون وجـود التفاهـة في المنتظـر
وشح المعيـن وبـذل العفـاء وما في المنـى من قصور النظـر
وما زخرف الغيب مـن موحـلات وما بعثـر اليأس مـن مـدّخر
وما كـوم العجز من شامخـات وما خـرب الحسـن فيمـا عمر
وما دنس الطهـر مـن طاهـرات ومـا صوّف العهر فيمن عهـر
بغاء العفاف صراخ السكـون جفاف العطـاء ومحـل المطـر
وهذا العـواء الرتيب النشـاز وهذا العزوف الشريـد الفكـر
وهذا المتاه السديـد الدروب وهـذا الفـراغ البليغ العبـر
وما بيـن هـذا وهـذا وذا تمـادى المتاه وضـاع العمـر

على أن هذه الاجواء المفعمة بالتساؤلات لم تشكل كما عند الرومنطيقيين مثـلا مرضا اسمه الهروب مما قد يعترض الانسان من مشاكل والاحتمـاء

بحصن الانا والذات والانكفاء الى عالم داخلي باطني صوفي تأملي ...
لقد كان عبدالمطلب يرى الى الواقع بعين ثاقبة ويحسن تشخيص الداء من اعراضه وتدفعه جرأته الى اعلان موقفه ، وموقفه كان دائما منحازا الى شعبه الى المظلومين والمستعبدين في كل زمان ، منحازا الى تلك القوى المناضلة من اجل تحرير بلادها وتحرر شعوبها من صلف الحكام واستهتارهم وامتهانهم لكرامات الناس واعراضهم واسباب عيشهم ، منحازا الى اهل البيت وشعره ينضح اعجابا بهم وتمسكا بتاريخهم وتمسكهم العنيد بقضية ما زالت حتى اليوم تقبض على هواجس بعض ذوي القربى والسلالات . منحازا الى الخمرة والكاس والندامى بما تشكله بالنسبة اليه من باب واسع نحو الحرية ،منحازا الى القضية القومية ، قضية فلسطين مستشرفا مستقبلها منذ ايامها الاولى ... وربما بسبب مواقفه الواضحة تلك عاش عبد المطلب حياة سماها حياة التشرد وحياة الغربة :

في اي صقع استقر واسكن ولاي ظل استريح واركن
الف السرى قدمي فما يحلو له الا التشرد فهو شرس ارعن
من كل ارض في نعالي غبرة ولكل ريح في ثيابي مسكن
الليل بيدائي على ظلمائه تاهت خطاي وضاع ما اتبين

والغربة تلك هي نفسها التي شعر بها المتنبي يوما حين قال :

ما مقامي بأرض نخله الا كمقام المسيح بين اليهود
انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

انها الغربة نفسها لانها غربة اصحاب الامكانات الكبيرة والطموح الكبير والامال العريضة الذين يصابون بخيبات امل من واقع لا يساعدهم ويقف فوق ذلك موقفا اعتراضيا من مواهبهم ومزاياهم . والا كيف نفسر اذن شخصا بامكانات عبدالمطلب ومنزلته كان يسكن غرفة متواضعة في احد الشوارع « المتشابهة » من منطقة النهر في بيروت، وفي تلك الغرفة زاره دبلوماسيون عرب واجانب ؟

قلنا أن عبدالمطلب كان يمتلك الادوات اللازمة والعناصر الضرورية ليكون شاعرا كبيرا ، امتلك اللغة ووضوح الموقف والموهبة وغزارة الانتاج ... الخ قال الدكتور حسين مروة في ذلك : « يملك العدة الكافية ، بل الغنية ، لدقة الاختيار وبراعة الاستصفاء ، ثم لاحكام البناء الشعري واتقانه » . وفي مكان آخر يشير الدكتور مروة الى « امتلاكه ، اي عبدالمطلب ، الوثيق لكل ادوات اللغة الشعرية وقواعد

النحو والعروض » ... وفضلا عن تملكه لتلك الادوات والعناصر كان بامكانه ان يجيّر موقعه الاجتماعي والسياسي كسفير ومنشأة في بيت السيد محسن الامين ويستعين بهما لكي يشيع شعره ويدفعه الى التداول ، لكنه لم يفعل ذلك واكتفى بأنه انشد الشعر بعفوية ليهمله على الفور بعد انشاده تاركا لاصدقائه ان يحافظوا على شعره وان يحفظوه . ورغم محبتهم له ولشعره لم تنج قصائده من البعثرة والضياع الى حد يدفعنا الى الاعتقاد ان ما جمع من اشعاره لا ينقل بأمانة تفاصيل عبدالمطلب التي يتحدث عنها اصدقاؤه، وربما لا يكون ذلك بسب قلة ما جمع من اشعاره بل بسبب كون الشعر بالنسبة اليه مجرد هواية متطورة لم يشأ ان يدخلها في باب الاحتراف مدخرا لهذا الباب طاقة اخرى غير الشعر ، ربما كانت السياسة ، ظلت هي بدورها خارج باب الاحتراف .

الهواية في الشعر دون الاحتراف استندت عند عبدالمطلب الى اسس ثلاثة :

الاساس الاول : هو ان الشعر لم يكن عالمه الوحيد ونظن انه لم يكن الاهم ولذلك لم تكن عنايته به موازية لموهبته فيه . يقول الدكتور حسين مروة عن شعره :

« انه التفجر الافقي المندفع خلال قشرة الاحساس ، ويأتي ، حين يأتي ، استجابة لتوترات عفوية آنية يدفعها من العمق الى السطح: ... ذلك كان شأنه في اغلب حالاته الشعرية ... سمة العفوية انسحبت على تعامله مع اللغة الشعرية في معظم ما كتبه شعرا بل انسحبت كذلك ، احيانا ، على تعامله مع قواعد النحو والعروض رغم امتلاكه الوثيق لكل ادوات اللغة الشعرية وقواعد النحو والعروض».

يضيف الدكتور مروة : « كانت استجاباته للحظات التوتر النفسي، تندفع بقسرية حادة وبنورية لا تمهله ان يتوقف ليقارن ويختار ويستصفي ثم ليبني قصيدته بروية وتدقيق واحكام .. »

الاساس الثاني : ان الشعر عنده لم يكن طاقة استثنائية يندر وجودها ، بل ان ملكة الشعر بين يديه قد توفرت في بيت عج بالشعراء وقد ذكرنا ان اخوته الثلاثة يكتبون الشعر ، اضافة الى عدد من اقاربه مما يترك الانطباع ان من طبيعة الامور ان يكتب عبد المطلب

الشعر من اجل الابداع في ميدان آخر ينبغي التفتيش عنه.

الاساس الثالث : انتماء شعره الى ما يسمى الشعر العاملي . والشعر العاملي ليس حدثا مفتعلا او قولا ينحو نحو المبالغة . الشعر العاملي ظاهرة تستحق التوقف وقد بادر الاستاذ حسن الامين شقيق عبدالمطلب كما بادر غيره الى جمع بعض التراث العاملي وما زال الجزء الاكثر من هذه الظاهرة مبعثرا في الذاكرة الشعبية او في الكتب او في الاوراق الخاصة المغمورة ...

لقد تفرد جبل عامل بهذه الميزة بحيث لم تخل قرية فيه من شاعر ينشد او ينظم او يقرض شعرا بالفصحى واذا لم يتوفر فبالعامية . وربما تكون هذه الظاهرة مرتبطة بالتراث الشعري القديم اكثر من تأثرها بالتيارات الجديدة بدءا من المدرسة الرومنطيقية وحتى يومنا هذا ولذلك جاء شعر عبدالمطلب اكثر استجابة لظاهرة الشعر العاملي بعفويته منه الى التيارات الفنية والشعرية منها بخاصة ، رغم كونه ولج باب الجديد وكتب خارج المألوف التراثي من موزون الشعر ومقفاه..
كتب عن غسان كنفاني بعيد اغتياله :

قد كنت الكلمة
الكل الكل الكلمة
كالبرعم والصلد
كالصخر وكالورد
لا بدء بلا كلمة
لا شيء بلا كلمة
لا مجد بلا كلمة
لكن الكلمة ...
من فمك المفصول عن الرأس
من صدرك هذا الراسي
هذا المفتوح على عكا
هذا المعشوشب بالحب
بالنار وبالحقد
شيءيخرس كل الناس
غسان ، ولا بد لاحلام الدمعة
من أن تجتاح هماك الجبارا

من أجل الاطفال ومن أجل الام
أوليسوا « غسانين » صغارا
وغدا « غسانون » كبارا
من نطفة هذا الانسان الملهم
المازج حبر الكلمة بالدم .

وعن هذه المسألة كتبَ الدكتور حسين مروة ايضا يحدد انتماء شعر عبد المطلب :

« ان الذي نقدمه من شعره ، وهو بعض شعره لا كله ، يتخذ مسارا يتقاطع حينا ، ويتوازى حينا مع مسار حركة الشعر الجديد ، ... ان عبدالمطلب كان ازخر طاقة واقوى طموحا وحيوية ، واشد اندفاعا للانطلاق والتطور والتحرر من ان يتخلف عن قافلته ...»

اذن هل ينتمي شعر عبدالمطلب الى تيار الجديد ؟ لا ، لكنه ليس غريبا او بعيدا او قاصرا عنه . كان قادرا على مواكبة الحركة الشعرية وقد عايش انطلاقتها بين الحربين وبشكل خاص بعد الحرب العالمية الثانية ، لكن نتاجه الشعري لم يكن بشكل عام ، مواكبا لها .

هذا عن عبدالمطلب الشاعر . اما عبدالمطلب السياسي فقد يكون الحكم عليه مقاربا وقد يكون النموذج الذي تكون عليه شاعرا هو نفسه الذي تكون عليه سياسيا ... لذلك نسارع الى القول انه عمل في السياسة هاويا ، ايضا ، وليس محترفا . لكنه هاو بامكانات محترف، هاو يجيد بامتياز حرفة السياسة التي منع عن احترافها في السلطة بينما امتنع عنها في المعارضة الحزبية .

اما عمله كدبلوماسي فلم يدم طويلا رغم نجاحه الباهر حسب زهير مارديني احد اصدقائه وهو يروي عن لسان سعد الله الجابري رئيس وزراء سوريا ووزير خارجيتها آنذاك واذا كان عبدالمطلب احد مؤسسي وزارة الخارجية السورية فهو الى جانب ذلك اول سفير او قائم بالاعمال السوري لدى الاتحاد السوفياتي وقد كان ذلك في الاربعينات اي في السنوات العصيبة التي مرت بالعالم العربي، ابان معارك الاستقلال وفي فترة النكبة والتآمر الامبريالي على الشعب الفلسطيني والشعوب العربية . ويحكى عنه نافذ البصيرة ثاقب الرؤيا حيال القضية الفلسطينية لكنه كان يقترح في واد والعرب الخونة يقررون في واد آخر فاعتبرهم عبدالمطلب من افضل الذين يتقنون غموض المواقف واستعداء الآخرين ، ومن افضل الذين « يكبرون الكلام » . على ان

عملــه في الحقل الدبلومــاسي لــم يدم طويــلا فما لبث بعــد عودته الــى سوريــا ان استقال من وزارة الخارجيــة احتجاجا علــى انقــلاب حسني الزعيم وبذلــك بدأت مرحلة جديدة من العمل السياسي عند عبدالمطلب ، المرحلة الاولــى مرحلــة العمل الدبلوماســي وقد دخل اليهــا بعد نجاحه في امتحــان رسمي دعت اليه وزارة الخارجيــة ، المرحلــة الثانيــة دخل اليهــا بناء على امتحــان ايضــا بينمــا كــان الامتحــان الاول اختيــارا لمعلومــاته ، كان الثاني امتحانا لموقفه .

في الحقل الدبلومــاسي لم يكــن هاويــا . لقــد كان محترفا رغــم حداثة عهده في هذا الحقل ، بــل لقــد كــان محترفــا بامتياز . في حقل النضال الحزبي والشعبي والجماهيري كان عبدالمطلب هاويا ، لم يدخل فــي تنظيم حزبــي لكنه منحازا لحزب الناس ، للمستضعفين ، للفقراء ، الذيــن سلبهم الظالمــون حرياتهم ، والمستثمرون خيراتهم والمستعمرون اوطانهم، كــان منحازا ضــد المتآمريــن على بلادهم ، ومنذ اللحظــة الاولــى لانقلاب حسني الزعيم اعلن موقفه واضحا : لقد تمرد عبدالمطلب لانه رأى في حسني الزعيــم خطــرا على البلاد بتسلطه وارتباطاته ولانه كــان وفيــا للذيــن تعاون معهم قبل الانقلاب ... امتنع عبدالمطلب عــن الــدوام مــع بعض الموظفيــن الوطنيين ونظم قصيدة فيه منهــا هذه الابيات

... قل : ما انقلابك ؟ اي امر جدّ فيه من الامور
الملح ملحك لم يزل تربــا وخبزك من شعيــر
... هل احرز الفلاح الا ارض عقلك ، ارض بــور
أو شمّ جيشك منك غير نفخ مــن غرور
أو نام عمال ، وما أقبلت تفرش مــن حرير ؟
الا على شــوك البطالــة والتدهور في الاجــور
زعموك سيــد نهضة فكشفت عــن عبد أجيــر
تالله لو طبعوك من ورق ومن ذهب نضيــر
ما كنت الا من دم المحروم او دمــع الفقيــر
ما كنت الا ظفــر الاستعمار ينشب في النحور
قد كان قبلك من طغوا هــلا سألت عن المصير .

(نذكر بالمناسبة ان الشاعــر نزار قباني كان قد تغزل بحسني الزعيم) بعد هذه القصيدة الوطنيــة ضــد صاحب الانقلاب فصل عبدالمطلب من الوظيفــة وكانت قصيدته قد انتشرت انتشارا كبيرا . وعلــى اساس مثل هــذا الموقف الوطني كــان عبدالمطلب مع قضايا الشعب والوطــن كتب

عن آلامهم وافراحهم ومعاركهم ضد الاستعمار ، كتب عن الفدائي ، عن معركة القناة ، قناة السويس ، عن حكم كميل شمعون ، عن الهزيمة ١٩٦٧ عن غسان كنفاني ، عن الثورة الاشتراكية الكبرى .

من وحي مهنته قاضيا ، وجد نفسه يحاكم قسرا متهمين شتان بين جرائمهم وجرائم من يتربعون على كراسي الحكم كتب يقول :

فالبيت قصر الاثرياء والقدس وكر الادعياء
وروائح البترول تزكم انف كل الانبياء
تطغى على نتن الجريمة في دهاليز الثراء
والحاكمون الداعرون تعوّدوا شرف البغاء
الفوا اريكات النفاق على متاهات الرياء
يا شعب جرحك في يديك وبين كفيك الدواء .

وكان بسبب مواقفه الوطنية شاعرا جماهيريا يتضخم المهرجان ويتضاعف عدد المشتركين فيه والحاضرين له اذا كان عبدالمطلب في عداد الخطباء

ان ذلك يفسر لنا الشفافية التي امتاز بها في حسه الشعبي وفي مواقفه الجماهيرية وفي قدرته على التعبير عما يجول في خواطر الناس من حوله والشهادات على ذلك كثيرة . في مثل هذه المواقف وازاء مثل هذه القضايا كان عبدالمطلب يهجر اسلوبه الكئيب اليائس الذي تحدثنا عنه ليعود الى اسلوب مفعم بالثقة بالمستقبل وبالناس ، مستند الى هذه الثقة في سخريته من القيمين على امور شعبهم. من النماذج الشعرية التي كتبها تلك التي تركها بعد الهزيمة في دمشق واعتزل بعد وظيفته وكان يومذاك رئيسا لمصلحة التوجيه والتعبئة في وزارة الدفاع السورية . كتب هذه القصيدة وترك سوريا والوظيفة وغادر الى لبنان . قال يعارض قصيدة شوقي التي مطلعها :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا
مشت على الرسم احداث وازمان

نم وانس جلق واندب حظ من هانوا على الارائك اطفال وغلمان
على الحدود تلاميذ ومدرسة وفي السرايات ضباط واركان
مع العدو رعاديد واقفية مع الرفاق منافيخ وشجعان
مع الجواسيس تطنيش ومغيبة وفي المباحث تعذيب وامعان
تضاءلت قيم التاريخ فانتفخت فيه الزقاق وشاب الحور والبان
مررت في معرض التاريخ اساله هل للعروبة في البازار دكان
هل نحن في معرض التاريخ اقفية ام اننا قيم تنمو وانسان ؟

هل نحـن عربدة تطفـو كما زبـــد ام اننـا في يـد التاريخ برهـــان
هل نحـن معوله الهـدام ام يـده منـارة فيـداه اليوم بركـان ؟
قم سائل الاكمه التاريخ : هل عبرت مع الحضارة في مشواه عربـان ؟
هل عشعش القمل في افيائه وحبـا حتـى تضايق اهل ثـم جيران ؟
تبا لـه القـزم التاريـخ وانفجرت شفاهـه عـن نوايـا هن عـدوان

★★★

لولا دمشق لما طـــارت قنيطـرة ولا ازدرى ببنـي العباس دايـان
كل الشهـور وصمناهـا بمأثـــرة وكـان آخر من قاسـى حزيـران
وقبله كـان آذار وثـــورتـــه وجاء من بعـــد تشريـن ونيسـان
اما شباط فلم نتـرك بـه رمقـا للثائريـن فللثـوار احـــزان
وكان يوليو : وحدث دونما حـرج عـن الشقيق ليونيو نحـن اخـوان
واشهـر الهجرة الغـراء رصعهـا من الاشقاء بالثورات رمضـــان
وارحل لسيناء واسأل في متاهتها عـن المشير وقـد وارتـه اكفـان
من فاه فيها : أموسى في جماعتــه ام جيشـه اللجب حفيـان وعريان
موشـي يـرد لفرعـون هديتــه مـع الفوائد فالـديـان دايـان
سل الحشيش سـل الافيـون ان فرغت
حقائـــب ، ففم التاريـــخ ملآن
ملآن باللعنـــات الســـود يبصقهـا
في وجـه مـن غدروا عمدا ومن خانوا

وراء كل مواقفه صدق انتمائه . لقد انتمى الى شعبه في جبل عامل، الى قضيـة شعبه والشعـوب العربيـة ، الى القضيـة الفلسطينيـة ،الى قضيـة الحرية ، الى قضيـة الانسان ... لذلـك آمن بالانسان ، بقدرتـه على تغيير العالم ، بقدرته على صنـع المستقبل وقد راح يثبت هذا الايمـان العميق بالانسان بعدمـا اقام في الاتحـاد السوفياتي وازداد اعجابـــا بمنجزات الثورة الاشتراكية فكتب يقول عنها :

فاذا اكتوبـــر لا كالشهـــــور زلزل التاريـخ وارتـج السريـر
مادت الدنيـا بعينـــي واجـف حطـم القمقم وانساب العبيـر
... ودموع الجائعين انهمـرت كهربـاء تغمـر الدنيـا بنـور
عرق الشعـب ، فلم يذهب سدى كدم الشعـب لقـد عـاد هديـر
ايهـا الشعـب الذي ارفـدنـا بالسلاحيـــن فنـــار وغيـر

هذا عبدالمطلب السياسي المنحاز الى شعبه في معاركه الوطنية في معارك عماله وفلاحيه ومثقفيه ، في نضاله ضد الغلاء وضد القمع ، في كفاحه من اجل التحرر . لكـن هذا السياسي الواضح في انتمائه لم ينخرط

في تنظيم حزبي ولم يعمل باتجاه الزعامة الشعبية عن اي طريق رغم كونه ابن العلامة ذي الموقع المعروف كرجل دين، وكرجل دين مميز. كان بامكانه ان يستعين بهذا الموقع الاجتماعي والديني للحصول على موقع سياسي لكنه لم يفعل .

كما الشاعر والسياسي كان عبدالمطلب المفكر وعبدالمطلب القاضي وعبدالمطلب المحامي والصحافي والناقد ... فكره هو موقفه بل هو جملة مواقفه التي عبر عنها شعرا وصاغها في زاويته في جريدة النداء وفي بعض ما نشره في صحف دمشق بتوقيع القاضي الفاضل وفي احاديثه ونقاشاته مع اصدقائه وندمائه ...

عنه شاعرا وسياسيا وصحافيا وناقدا نقول مع من قال : كان ينبغي ان يكون افضل مما كان، لان امكاناته كانت اكبر بكثير من موقعه الرسمي ! لكن ! وهل كان عبدالمطلب راضيا بهذا الواقع ، وهل كان على شعور باهمية الموقع الذي ينبغي ان يحتله ؟ نعم لقد كان على يقين من ذلك لكن ردة فعله على الظروف التي حالت دون بلوغه ما يستحق قد عبر عنها بشكلين وسلك حيالها مسلكين :

الاول يمكن استنتاجه من الابيات التالية :

جرني الكأس للحياة فأدمى · قدمي البكر بالسرى والعياء
انا لولاه مقعد في سرابي واسير لوحدتي وانزوائي
لامني الناس في رفاقة كأسي يحرمون الاعمى عصا الاهتداء
ويريدون ان اغني واشدو في زوايا مقابر الاحياء
انت نايي يا كأس والنغم الحلو عطاء في كفك الخرساء
انت حطمتني وسقت حياتي في دياجير هذه الظلماء
انا لولاك جذوة من طموح لم تسعها مدارج العلياء
ثم ماذا ؟ اخون فيك صديقي وسميري وسلوتي وعزائي
لا وعينيك ايها السم فاتك بالسقيم المنهوك من احشائي

كان من الملفت للنظر ان تكون علاقة عبد المطلب بالخمرة بمثل هذا المستوى من الحميمية فهي « صديقي وسميري وسلوتي وعزائي » وان ينطبق عليه قول لابي نواس كان يردده عبدالمطلب بنفسه :

ومن الغنم ان تراني صاحيا ومن الغبن ان يتعتعني السكر

او قوله :

تسألني عن سقمي صحتي هي العجب

قلنا من الملفت للنظر ان تكون علاقته بالخمرة على هذا المستوى في وقت الذي يعرف فيه بصلابة ارتباطه بتراثه الديني ، بآل البيت ،

بوالده العلامة بالعادات والتقاليـد السائدة بين أهل زمانه ..

وربما كانت الخمرة بالنسبة اليه عالمـا يتاح لـه فيه ان يكون اكثـر انطلاقـا واشـد تفجرا واكثر حريـة وارحب خيـالا وارهف احساسا .. كـان مـع الكأس ينظم القصيـدة بمثل اللمـح ويترجـم الصفحـة الى اللغـة العربيـة بمثل مـا تنداح دائـرة في لجـة المـاء يلقـى فيـه بالحجـر (ابن الرومي) ومع الكاس والندامى في نفس العالم ونفس الواقع لكـن بعلاقات جديدة لـم تتدخل ولم تشارك في صياغتها تلك القيم المختلة، ومع الكاس شعـر ونقـد وسياسـة وفكاهـة ومع الكـاس اناس « لا يصيبهم الا بمـا شاؤوا » مع الكاس حريـة محرّمة في بلادنـا .

المسلك الثاني هـو مسلـك السخريـة والنكتة والفكاهـة الحاضرة دائمـا والفكاهـة تعريفـا هي مهارة اللعب على التناقض بين ما هو طبيعي ومـا هـو مفتعل ، عادي وغيـر عادي ، سائد ومنقرض ... الخ ولا يمتلك القدرة على الفكاهـة من كـان لا يمتلـك ناصية النقيضين ، على حـد سـواء .

وتزداد المهارة في ابتكار الفكاهة كلما اتسعت مادة الفكاهة لتشمل كل شيء ، نعـم كـل شـيء ، القضاء ، السلطـة ، الوزارة ، السفارة ، القصيدة ، الصديق ، الزوج الشيح ، المسائل الحياتيـة الاجتماعيـة الاخلاقيـة الى مـا هنـالك مـن اشيـاء ومواضيع ، وبذلـك تتجـاوز الفكاهـة حـد التهريج والضحك الشكلي وتصل في مستواها وغناهـا حد الطرب الاصيل وهذا مـا كان يتقنه عبدالمطلب الى آخـر مداه مما يجعلـه متحدثا وحيـدا في الجلسات والحاضرون على ترقب لجديد من طرائفـه وحكاياته واشعـاره واخباره ...

وراء مهارته الضاحكـة استخفاف بجوانب الواقع الذي منعه مـن اطلاق مواهبه وقـد اتسـع نطاق الاستخفاف هذا ليشمل بعض ما في الذهـن من مقدسات كان لامباليـا مع موته ، مستخفـا به . الاشهـر الاخيرة مـن حياتـه قضاها في المرض . كـان يصاب بالغيبوبة وحولـه الناس في حزن عميق كل واحـد منهم يذرف دمعة بصمت وفي مثل هـذا الجـو مـن كآبة الحاضريـن يصحـو مـن الغيبوبة ليروي لهـم نكتـة تضحكـهم . كـان زائروه ينظرون الى اعراض مرضه بخشوع ومهابـة وبتأمل عميق بالحياة والموت فيشرد واحدهم الى حيث يذهب به الخيال ، وحده عبدالمطلب كـان دائم الابتسامة بل دائم الضحـك على مـا يظهـر عليه مـن اعراض .

في مجال الشعر قلنا : لا يتقن الشعر الا من كان قابضا على عدة الشعر وادواته ممتلكا لمفاهيمه مستندا الى وضوح موقفه ...

وفي مجال الفكاهة نقول : لا يتقن الضحك والمرح والنكتة كعبدالمطلب الا من كان قابضا على ادوات الفرح من الذكاء الحاد وسرعة البديهة ودقة الملاحظة وبلوغ الجراة والعبث المفرط الذي يفتش عن الحقيقة فيما وراء الحقيقة ، ويقابل بالنكتة من يلتقيهم ايا كان موقعهم ورتبتهم من ستالين الى تشرشل الى زملائه واصدقائه وندمائه ورؤسائه ومرؤوسيه وكافة الفئات الشعبية التي كان يرتاح اليها اكثر من ارتياحه للآخرين .

وطرائفه لا تحصى ومزاحه لا يتوقف والحوادث التي تروى عنه وعن فنونه في الضحك كثيرة منها حادثة مع ستالين ومولوتوف .

وحادثة مع الشيخ هاشم الرفاعي في الكويت .

وحادثة مع السفير الاميركي في موسكو ـ

وآلاف الحوادث الاخرى التي نعتبرها مجتمعة اهم ما في شخصية عبدالمطلب . فبواسطة هذا الاسلوب الطريف الفكاهي المرح ترجم عبدالمطلب مواهبه واخرجها الى الناس وبها ادخل الى القلوب فرح اللقاء به وبهجة التعرف عليه شاعرا وقاضيا ودبلوماسيا وناقدا وصحافيا ومحدثا ...

عبدالمطلب كان حسب رأي الدكتور حسين مروة :

« طاقة بحجم طموحه تتوزع في طاقات ، كل واحدة منها بحجم الطاقة ـ الام : ثقافة مكتنزة عمقا وشمولا ، شاعرية مرهفة لها شفافية الصحو الربيعي المشمس ، نفاذ فكري يخترق الظاهرة الكثيفة ، الى جوهرها اللطيف بلمحة واحدة لها وهج شلال من الضوء ، قدرة على التكيف في مناخ كل ممارسة وكل سلوك وكل بيئة بشرية ، صلابة في الموقف المبدئي لها تماسك الفولاذ ومرونته في وقت معا .. »

فؤاد جــــرداق
شاعر التمرد والتحدي

بقلم : حبيب صادق

« قلنا له مرة : صف نفسك فقال : شاعر ساخر ثائر ، قلنـــا : وما شأنك بالحب . قال : خاسر .

قلنا له : وبالمال . قال : ظافر . قلنا : وبالخمرة . قـــال : انها شر الكبائـر » .

هذا الحوار القصيـر والمشدود كالوتر – جرى ، ذات يوم ، بيـن صديقين ، حميمين مثّل دور السائل منهمـا سلام الراسي ودور المجيب فؤاد جرداق (١) .

تلك هي الصورة التي رسمهـا لنفسه ، باقتصاد شديد ، في الخطوط والالوان ، « شاعـر المرج » ونقلهـا الينـا بامانـة وحياد ، صاحبه ورفيق العمر سلام الراســي (٢) .

(١) القلم الصريح – العدد ١٣٤٣ – ١٣٤٤ في اول تشرين الثاني ١٩٦٥ ، و « في الزوايـا خبايـا » سلام الراسي بيروت ط – ث – ١٩٧٩ .

(٢) مؤلف « لئلا تضيع » و « حكـي قرايـا وحكي سرايا » و « شيـخ بريـح » و « النـاس بالنـاس » من تراثنـا الشعبـي .

واذا اردنا ، في هذا السياق ، ان ننقل الصور التي التقطها له اصدقاؤه الاخرون ومعارفه ، وهو في مختلف اوضاعه وشتى حالاته، لتعذّر علينا ذلك لانها من الكثرة والتنوع بحيث يضيق المجال، مهما اتسع، عن استيعابها جميعا .

ولكن مهما تعدّدت زوايا الرؤية عند هؤلاء المصورين ، ومهما تباينت مشاعرهم ووجهات نظرهم فهم يجمعون على تقدير فؤاد جرداق، الشاعر والانسان ، ويكبرون فيه نبوغا مبكرا يتّصف بالتوقد والتحدّي، على حضور بديهة وسخرية نافذة وظرف اخّاذ وقدرة عجيبة على ارتجال الشعر .

ومهما يكن من امر تلك الصورة التي يعطيها الشاعر عن نفسه او هذه الصور جميعا التي يعطيها الاصدقاء عنه والمعارف فان ما يهمّنا، في هذه الدراسة عنه ، هي تلك الصور التي يشكّلها لدينا نتاجه الادبي او ،على الاقل ، ما وسعنا الاطلاع عليه من هذا النتاج بالاضافة الى ممارسته الاجتماعية العملية او ما ترامى الينا من اخبارها وحكاياتها .

واذ نشير ، هنا ، الى هذه الممارسة ونشدّد عليها فلأن اغلب القول عند شاعرنا كان من شدة ارتباطه بالحديث الاجتماعي ،بحيث يبدو وكأنه الارهاص به والمحرض على وقوعه في آن معا او كأنه الانعكاس الفوري له ، المشحون بالنبض والحرارة في حالة ولادتهما التلقائية . ولا نقصد من هذه الاشارة الاخيرة تسجيل رأي في فنية هذا الانعكاس، فتلك مسألة اخرى، اذ ما كان للقول الشعري ، في هذه الحال، ان يستقيم دائما فنيا وان كان يؤدي وظيفته من ناحية التحريض والاضاءة على هذا القدر من النجاح او ذاك .

اذن فمن خلال قراءتي لفؤاد جرداق، الشاعر والانسان، عبر ما تناهى الي من نتاجه الشعري وهو قليل من كثير كما يجزم بذلك اقاربه ورفاق عمره، وعبر ما ترامى الي من اخبار الثقاة من الرواة، اقول من خلال هذه القراءة، التي لا ادعي لها العصمة عن الخطأ، تشكلت لدي صورة عن الجرداق لا ازعم انها كاملة ومستوفاة الشروط جميعا انما هي، على الاقل حصيلة ما وسعني الاجتهاد من الامساك به من نقاط ومفاصل توزعت على المئات من قصاصات الورق الذابلة بالاضافة الى مجموعته الاولى المفقودة التي صدرت سنة ١٩٣٠ تحت عنوان «المنعشات في مسارح الصهباء»(١)

---

(١) مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ٢٨ صفحة من القطع الصغير .

والى مجموعته الثانية التي صدرت بعد وفاته، سنة ١٩٧٤ تحت عنـــوان «الهواجس» (١) ثم الى مخطوطة «رباعيات الجرداق» (٢) علاوة علـى بعض الشعر غير المدون والكثير من القصص التي ما برحت في صـــدور المحبين والمعجبين هنا وهناك .

في تلك الصورة ـ الحصيلة يبدهك هذا الازدحام الكثيف مـن الخطوط المتشابكة، الباهت منها والصارخ، الغائر منها والمسطح، على خلفية مركبـة شديدة التعقيد. انما مهما تعددت هذه الخطوط وتشابكت فيما بينها فثمة فسحة تنفذ منها بيسر الى الامساك بخطين ـ محورين تكاد تدور بقيـــة الخطوط في مداريهما وان بدا بعضها او اكثرها في وضع المتقاطع او المتوازن معهما او السائر في اتجاه معاكس لهما. ومتى امسكت بهذين المحورين تيسر لك، من فورك، ان تقرأ عنوان كل منهما بوضوح، فثمة خط التمرد والرفض وثمـة خط الانحياز والمجالدة، علما بانه لا انفصام بين هذين الخطين بـــل همـا يشكلان معا وجهي العملة الواحدة .

هنا ينتصب في وجهنا سؤال متفرع الى اسئلة، ترى مـا طبيعة هذا الانحياز وذلك التمرد ؟

او بعبارة ثانية، ترى مع من هذا الانحياز ومع ما ؟
وذلك التمرد ضد من وضد ما؟
ثم مـا هي ابعـاد ذلك الرفض وما هي ساحة تلك المجالدة ؟..

لا شك في ان الحقل الوحيد الذي بوسعنا التقاط الاجوبة الحاسمة عـن تكلم الاسئلة جميعا هو تراث الشاعر في القول والسيرة سواء بسواء.

من هنا تقتضي الضرورة العلمية للبحث الوقوف على الخلفيات التـي كان لها دور التأسيس والاسهام في صياغة قول شاعرنا الجرداق وممارساته الاجتماعيـة العمليـة .

فـي السيرة الذاتية والواقع الاجتماعي .

تقول تذكرة الهوية الخاصة بالشاعر ما يلي :
الاسم والشهرة : فؤاد جرداق .
اسم الاب : سجعان . اسم الام : سبيها نايفة .

(١) مؤسسة مطابع معتوق اخوان ـ بيروت ١٦٠. صفحة من القطع المتوسط .
(٢) موجودة في حوزة ابنه وسام وقد وضعهـا بيـن يدي مشكورا مـع مـا تجمـع لديه من وثائـق واوراق تخص والده .

تاريخ ومحل الولادة : جديدة مرجعيون ١٩٠٩ تسعة فقط .
المذهب : روم ارثوذكس .
الصنعة : مهندس زراعي .
وفي الختام تقول التذكرة : ان الحكومة اللبنانية تثبت ان فـؤاد جرداق هـو لبنانـي .

وما لم تقله تذكرة الهوية او ما ليس بوسعها ان تقوله هو التالي: (١).
ان سجعان جرداق كان معلم عمار مشهورا بالمهارة والحذاقة وكـان يميل الى فن النحت وقول الزجل والغناء وكان يحفظ الكثيـر من الشعر العربي القديم والزجل البدوي الى جانب آيات من القرآن الكريم واقـوال للامام علي. وكان متواضع الدخل شأن غيره من اصحاب المهن في الريف.
وان فؤاد جرداق تعلم في مدرسة الحاكم في بلدته او المدرسة الرسمية بلغة اليوم، ودخل دير المخلص منخرطا في سلك الرهبنة من اجل ان يتابع دراسته انما قبل ان يمر عليه العام يغادر الدير محدثا ضجة كبـرى فـي وسطه (٢) ثم ينتقل فيما بعد الى «السلمية» في سورية حيث يدرس فـي معهدها الزراعي الهندسة الزراعية. وبعد تخرجه ينتظم في سلك الوظيفـة العامة ولكن سرعان ما يتخلى عنه في اعقاب نزاع شديد مع المدير العام.وفي اوائل عام ١٩٣٩ يتزوج من «وداد القرداحي» المصرية الجنسية، فينجـب منها ولدين يسمي الاول «احمد وسام» والثاني «زينب وفاء» ثم يقع الطلاق فيضع حدا لهذا الزواج الذي لم يدم اكثر من خمسة اعوام تقريبـا ويدخل الطفلان في حضانة جديهما لابيهما دون ان ينقطع عنهما حنان الوالد الدفاق. وتتكرر التجربة سنة ١٩٤٩ فيتزوج من «علياء ابي عاصي»، وهـي مواطنة سورية من القنيطرة ومرة ثانية يقع الطلاق من غير ان يمر على الزواج الثاني سوى عامين او يكاد وبعد ولادة طفل سماه «عليا» الا انه مـات في سن الرضاعة .
هذا الوضع اللامستقر، على صعيد الزواج، رافق حياة الجرداق على جميع الصعد. فأمره مع الوظيفة العامة لم يكن بأحسن حال من امره مع مؤسسة الزواج، فهو، على هذا الصعيد ايضا، قد اخفق في اقامة علاقـة

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من احاديث اجريتهـا مع ابن الشاعر اسامة ومع ابنته وفـاء ثم مع الاساتذة مير مسعـد والفرد ابو سمرا وسلام الراسي ولبيب غلميـة وغيرهم من اصدقائه المقربيـن .

(٢) كما كتب الشاعر في صحيفة «الناس» البغدادية بتاريخ ١٧ اذار ١٩٣١ .

مستقرة بينه وبين الدولة ومن اين له ان ينجح هنا وهو لا يرى في الدولة سوى عدو بشع؟؟ من هنا اتسمت علاقته بالوظيفة العامة بالتوتر المستمر الذي كان ينتهي دائما الى انقطاع ثم عودة فانقطاع لا عودة بعده ابدا. وهكذا كانت حاله في ميداني التعليم الخاص والصحافة اللذين مارسهما في فترات متقطعة من حياته المتدفقة بالنشاط والحركة .

ففي ميدان التعليم الخاص تنقل كثيرا من موقع الى اخر . فمن « الجامعة الوطنية » في عاليه ، حيث زامل مارون عبود فآنس به واخذ عنه ، الى « الثانوية الوطنية » في جديدة مرجعيون الى « ثانوية بيروت الوطنية » في بيروت حيث كانت المحطة الاخيرة لرحلة كفاحه المرير وحياته المضطربة معا .

وفي ميدان الصحافة لم يجد سبيلا الى الراحة ولم يذق طعما للاستقرار رغم انه وصل منها ، بسن مبكرة ، الى منزلة عالية فهو قد رئس تحرير جريدة « النهضة المرجعيونية » ابتداء من ١٩ تشرين الاول عام ١٩٣٣ . وفي اواسط الثلاثينات ادار ، مع سجيع الاسمر ، جريدة « العجائب » في بيروت وبعد ذلك ، بوقت قصير ، انشأ مع فؤاد الشمالي في بيروت جريدتي « المريخ » و« الخازوق » الانتقاديتين الساخرتين واللتين لم يستمر صدورهما طويلا بسبب مصادرة سلطات الانتداب لهما وملاحقة صاحبيهما ، الجرداق خاصة، على تناولهما، بالسخرية اللاذعة ، رجال الانتداب الفرنسي والازلام التابعين لهم من اهل البلاد .

وعلاوة على هذه الصحف التي انشأها او شارك في مسؤولية تحريرها فقد كان الجرداق يتابع نشر قصائده المتأججة في اكثر من عشرين صحيفة ومجلة عربية داخل لبنان وخارجه (١) .

في غضون تلك السنوات المشحونة بالاحداث ، لبنانيا وعربيا وعالميا ، تعرض الشاعر لضغوط الملاحقات القاسية وعرف ظلام السجون والمعتقلات وذاق مرارة الحرمان والبطالة ورمي بالتهم المثيرة

(١) « المرج » و « النهضة المرجعيونية » و « القلم الصريح » و « صدى الجنوب » مرجعيون «الشعلة» «والدليل» و «العجائب» و « الاقلام » و « المزارع »و «البيرق » و «الحرية» و«صباح الخير » بيروت. مجلة « العرفان » و « العصر » صيدا و «الراي العام» دمشق ، و «صدى سوريا » ــ حمص . «الناس» ــ بغداد و «المثال » ــ الموصل. «الاوقات العربية» ــ القدس. مجلة «اهل النفط» وغيرها .

والاباطيل .

ولا يأخذنا العجب من ذلك اذا ما عرفنا الشاعر في معدنه الصلب وفي رسالته التي تجند لها ثم اذا ما وقفنا في الوقت نفسه، على طبيعة المرحلة التي يتحدّى ، بالقول والفعل ، قوانينها الصارمة.

ففي حديث صريح مع واحد من الاصفياء يقول الجرداق : « ان وظيفتنا في هذه الحياة هي الهدم . هدم كل ما هو قائم حولنا في هذا الزمن الرديء ..» (1) .

ترى ما هو هذا الشيء الذي كان يقوم حول شاعرنا في ذلك الزمن ويسدّ عليه منافذ الهواء ويحجب عنه وجه الشمس وسحر الفضاء ؟

بالتحديد هذا الشيء هو الانتداب الفرنسي بجبروته ومؤسساته القمعية جميعا بما فيها مؤسسة السلطة اللبنانية التابعة . هذا على مساحة لبنان باسره فاذا ما انتقلت الى ناحية الجنوب او جبل عامل ، حيث عالم الشاعر الاول فيتلقاك ثمة من هذه المؤسسات الوجه الاكثر قبحا والاشد ضراوة المتمثل بسلطة الانتداب المحلية وجلاوزتها من جهة وبتحالف الاقطاع السياسي والطائفي من جهة ثانية .

هذا بالاضافة الى الريح السوداء التي بدات تهب على جبل عامل، في وقت مبكر ، من قبل المؤسسة الصهيونية وتحت رعاية الانتدابين الانكليزي ، على فلسطين ، والفرنسي على كل من سوريا ولبنان.

ومن تيسر له الاطلاع على روزنامة الاطماع الصهيونية في جبل عامل، وكيف يجري تنفيذها بالتدريج ، يدرك معنى المحنة التي يكابدها ابناء الجنوب في الزمن الراهن ، ويقدّر حجم الخسائر التي مني بها سكان الشريط الحدودي على وجه الخصوص ومنهم ابناء الجديدة ، بلدة الشاعر، ثم بوسعه ان يرى ، في ضوء محنة الحاضر مضافة الى محن الماضي، وجوه المخاطر المحدقة بمصير هذا الجزء من لبنان وبالتالي بمصير لبنان برمته .

ونحن اذ نجعل الجديدة في جملة قرى ومدن الجنوب التي اصابتها المحنة فلانها فقدت ، كما جبل عامل ، سوقها الطبيعية في فلسطين في اعقاب تنفيذ التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي ، فهي،

---

(1) من مقابلة شخصية مع صديقه الاستاذ ابراهيم حرب .

اي الجديدة ، كانت منذ العهد العثماني قائمقامية تمتد جنوبا فتشمل سهل الحولة بأغلبية اراضيه وقد استمر الوضع على هذا الحال حتى عام ١٩٢٣ (١) حين ضمت الحولة الى فلسطين وعلى الرغم من هذا الواقع المستجد ، احتفظت الاسر المرجعيونية بأملاكها في هذا السهل الخصيب والبالغة مساحتها اكثر من ١٤ الف دونم (٢) متحدية بذلك جميع المضايقات التي كان يمارسها عليهم الصهاينة مباشرة او عبر سماسرتهم ، ومترفعة عن جميع المغريات التي كانوا يبذلونها لهم بسخاء . الى ان قامت دولة اسرائيل على مصادرة فلسطين واغتصاب ارضها فاغتصبت معها املاك العامليين جميعا بمن فيهم ابناء مرجعيون .

وكان من نتائج ذلك ارتداد اقتصادي قاس اصاب جبل عامل بكامله وليس مرجعيون فقط الامر الذي دفع هذا الجبل باتجاه الشمال اي باتجاه بيروت واسواقها فدخل ، بذلك ، في اطار العلاقات التبعية للسوق الرأسمالية المحلية والعالمية (٣) .

وكان الى جانب هذه العلاقة بفلسطين علاقة اوثق تشد مرجعيون خاصة بجنوب سوريا حوران والجولان والقنيطرة تحديدا ، هذه العلاقة ما كانت لتتمثل بالملكية العقارية او التبادل التجاري فقط وانما بالعلاقات الاجتماعية والعائلية ايضا . ذلك ان كثرة من أسر هذه البلدة جاءت من تلك الجهة الجنوبية من سوريا وبقيت ترعى هذه الصلة وتفتخر بها الى يومنا هذا .

في ضوء هذا العرض يتبين ان جديدة مرجعيون كانت تتمتع بمنزلة متميزة في جبل عامل سواء من حيث مركزها الاداري او موقعها الاستراتيجي لكونها على عقدة طرق دولية تربط لبنان بكل من سوريا وفلسطين أو من حيث مكانتها السياسية والثقافية .

واستكمالا للعرض لا غنى لنا عن اطلالة قصيرة نلقيها على هذه

---

(١) من دراسة د/ مسعود ضاهر في « صفحات من تاريخ جبل عامل » منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ص ١١٦ .

(٢) سلام الراسي – لئلا تضيع ص – ٦٤ و٦٥ بيروت ١٩٧١ .

(٣) من دراسة د/ مسعود ضاهر المرجع السابق .

المكانة . فعلى الصعيد السياسي لعبت مرجعيون دورا رياديا على ساحة النضال العربي ، وقد تجلّى هذا الدور ، اول ما تجلى في « ارتفاع الراية العربية على سراي البلدة عام ١٩١٨ وكانت اول راية عربية لاول حكومة عربية في سوريا ولبنان » (١) .

وتجلى هذا الدور ايضا في نتيجة الاستفتاء الذي جرى عام١٩١٩ حول الحكم الذي يريده المواطنون اعربيا ام اجنبيا فصوّت ابناء الطائفتين الارثوذكسية والبروتستنتية ، وهم اكثرية ساحقة ، الى جانب الحكم العربي (٢) .

كما تجلّى هذا الدور في المشاركة في المؤتمرات التاريخية «مؤتمر ابناء الساحل » المنعقد في دمشق ١٩٢٨ ـ للمطالبة بالوحدة السورية والذي شارك فيه ابن مرجعيون مراد غلمية ، في وفد جبل عامل الذي كان يضم الشيخ احمد رضا والشيخ احمد عارف الزين ، ورياض الصلح وغيرهم ...(٣) وكـ « مؤتمر بلودان » المنعقد سنة ١٩٣٧ للدفاع عن فلسطين وقد شارك فيه مواطن آخر من مرجعيون هو الصحفي الفرد ابو سمرا (٤) ثم برز وجه مرجعيون السياسي في دور ريادي آخر تمثّل في اشتراك محام من مرجعيون هو مير مسعد بالاضافة الى الاديب سلام الراسي من ابل السقي المجاورة ، في تأسيس حزب اشتراكي في لبنان مع اميل قشعمي .. وغيره (٥) ولم يلبث المؤسسون من ابناء مرجعيون ان أقدموا على القيام بنقلة نوعية وذلك بانتسابهم الى الحزب الشيوعي السوري اللبناني والنضال في صفوفه (٦) .

---

(١) الفرد ابو سمرا ـ محاضرة القاها في مقر المجلس الثقافي للبنان الجنوبي بتاريخ ١١ ـ ٤ ـ ١٩٨٠ .
(٢) الفرد ابو سمرا ـ المرجع السابق .
(٣) سعيد مراد ـ «الحركة الوحدوية في لبنان » رسالة لشهادة الماجستير في الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٧٩ .
(٤) الفرد ابو سمرا المرجع السابق .
(٥) مقابلات شخصية مع السادة مير مسعد وسلام الراسي وجودج زوربا ـ ايار ١٩٨٠
(٦) مقابلة شخصية مع الاستاذ مير مسعد ـ ايار ١٩٨٠ .

هذا على الصعيد السياسي اما على الصعيد الثقافي فنكتفي بالاشارة الى المستوى الثقافي المتقدم الذي بلغته مرجعيون في زمن كان الجوار يرزح تحت ظلام الجهل وذلك بسبب كثرة المدارس التي كانت تكتظ بها ثم بسبب هجرة بعض ابنائها الى الامريكتين وتواصل علاقتهم بها . ولعل الدليل الابلغ على ذلك المستوى الثقافي يبرز في السبق الذي أحرزته هذه البلدة في ميدان الصحافة ففي عام ١٩٠٩ صدرت جريدة « المرج » الاسبوعية لمؤسسها الدكتور اسعد رحال فكانت اول جريدة في جبل عامل كله اذا استثنينا مجلة « العرفان » التي انشأها في صيدا الشيخ احمد عارف الزين في العام نفسه كما انشأ في العام ١٩١٢ جريدة « جبل عامل » ، ثم توالى صدور الصحف في جديدة مرجعيون بصورة تسترعي الانتباه ففي عام ١٩٢٦ اصدرت جمعية النهضة المرجعيونية صحيفة اسبوعية باسم « النهضة المرجعيونية » ثم في عام ١٩٣١ أصدر الفرد ابو سمرا « القلم الصريح » وتبعه فضلو دخيل مؤسسا « صدى الجنوب » في عام ١٩٣٧ .

فأن تظهر، في تلك الفترة المبكرة والصعبة ، اربع صحف في حاضرة دون غيرها من حواضر جبل عامل ، هي جديدة مرجعيون ، مع استثناء مدينة صيدا ، فذاك امر ان دل على شيء فأنما يدل على مستوى متقدم من الوعي الاجتماعي والسياسي ومن النهوض الثقافي ، لا سيما اذا رأينا الى هذه الظاهرة في محيطها العاملي عهد ذاك .

فهذا المحيط ، على الرغم من تفجّره بانتفاضات وطنية وقومية وتمتعه ، تاريخيا ، بحركة ادبية غنية يتصدرها الشعر ، كان يشكو من حرمان فظيع في مختلف المجالات ، يطال الاغلبية الساحقة من جماهيره . الامر الذي حال بين اولاد هذه الجماهير وبين العلم فالمدارس على ندرتها فيه كانت وقفا على ابناء الميسورين من رجال الاقطاع والوجهاء والتجار هذا اذا ما استثنينا المدارس الدينية التي كانت حكرا على ابناء العائلات الدينية ومن يلوذ بها من عامة الناس.

انما في هذا الوسط الطبقي كانت تنمو حركة ادبية ويزدهر فيها الشعر وان على قواعد المحافظة على اصول الماضي بيد ان مدرسة مجلة « العرفان » من جهة و « عصبة الادب العاملي » ، بعد انتقالها

الى الجنوب من جهة ثانية احدثتا « بداية حركة ثقافية اصلاحية داخل المدرسة الدينية اولا ثم انعكست اثارها ، فيما بعد ، على الحياة السياسية في جبل عامل فاصبح هناك حركة شباب بمواجهة الرجعية المحلية ... وقد عمّقت هذه الحركة جذورها الثقافية والسياسية بدخولها ميدان محاربة الانتداب واذنابه والظلم الاجتماعي » (١) .

تلك هي السمات الرئيسة العامة للواقع الاجتماعي الذي ولد وعاش في غمرته شاعرنا فؤاد جرداق في حدود مرحلة زمنية هي من اخصب مراحل التاريخ الاجتماعي بالاحداث اللامحدودة من حيث الحجم والتأثير وبالتحولات النوعية وذلك على مستوى العالم باسره وليس على مستوى لبنان والمحيط العربي فقط .

اذا كان هذا هو الواقع الاجتماعي الذي ولد وعاش في غمرته شاعرنا في حدود مرحلة تاريخية معينة .

واذا كان الشعر والادب عموما ، لا يعدو كونه ممارسة اجتماعية فنية مشروطة بواقع اجتماعي معين وبظرف زمني محدّد .

فعلينا ان نقرأ ، في ضوء ذلك ، تلك الممارسة ، اي الكتابة الشعرية التي انتجها لنا ولتاريخ الادب العربي في جبل عامل، شاعر المرج فؤاد جرداق في عمره القصير نسبيا . (توفي في ٢ ايلول ١٩٦٥) .

سبق لنا القول ان من يرى الى صورة فؤاد جرداق ، الشاعر والانسان ، يقع ، من شبكة الخطوط المعقدة ، على خطين ـ محورين يشكلان وجهي عملة واحدة هما :

ـ خط يمثل مواقف التمرد على جميع المؤسسات القائمة في مجتمعه ابتداء من مؤسسة الزواج وانتهاء بالنظام الاجتماعي مرورا بالمؤسسات الطائفية والسياسية والثقافية وغيرها .

---

(١) موسى الزين شرارة ـ في محاضرة القاها في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي في ١٥ ـ ٢ ـ ١٩٨٠ .

ـ خط يمثل مواقف الانحياز الى مواقع المناضلين من اجل العروبة وحرية الوطن وسيادته وتقدمه وحرية الانسان وكرامته والى مواقع الفقراء والكادحين داعيا الى نظام اجتماعي بديل يقوم على اسس العدالة والعلمانية والديمقراطية .

وتجنبا للدخول في التفاصيل او الوقوف عند المواقف الهامشية او تلك التي فقدت توهجها في يومنا هذا أميل الى اختيار المواقف التالية التي تشكل في زعمي ابرز مفاصل الخطين ـ المحورين وهي :

اولا : الموقف من القضية القومية .
ثانيا : الموقف من الوضع اللبناني والمسألة الوطنية .
ثالثا : الموقف من القضية الاجتماعية ـ الطبقية .
رابعا : الموقف من المسألة الطائفية والمعتقد الديني .

اولا : موقف الجرداق من القضية العربية

لقد أشرنا ، في سياق العرض ، الى الموقع المتقدم الذي كانت تحتله مرجعيون بخاصة وجبل عامل بعامة على ساحة العمل العربي . وكان يحتدم على تلك الساحة صراع ضار بين القوى العربية الساعية للتحرر والوحدة ، وبين قوى الاستعمار المتحالفة على تجزئة البلاد العربية واقتسامها فيما بينها والمتواطئة ، في الوقت نفسه ، مع المؤسسة الصهيونية على مصادرة الارض في فلسطين وجوارها ولا سيما في جبل عامل تمهيدا لتحقيق مطامع الصهاينة في انشاء دولة لهم في قلب الوطن العربي .

ومن هذا الصراع المحتدم اصبحت الحياة العربية موجة عارمة في التيار المتلاطم بالاراء والمآسي من جهة ، وبالآمال والبشائر من جهة ثانية ، والشعر العربي في ذلك ما يزال في قلب الموجة يذهب معها في كل جهة (١) .

وفي صميم ذلك التيار المتلاطم كانت الحياة في جبل عامل وكذلك كان قول شعرائه في قلب الموجة وفي زعيل من هؤلاء الشعراء يأتي فؤاد جرداق ، اذن فهو شاعر عاملي قبل كل شيء . من هنا لا ارى كبير جدوى في محاولة الحاقه في مدرسة من المدارس الشعرية التي توزعت داخل لبنان وخارجه مثل الرومانطيقية والرمزية او حركة الشعر

---

(١) حسين مروة ـ دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقعي بيروت ١٩٦٥ ص ٢٨١ .

الحديث . هذا مع الاشارة الى ان شاعرنا لم يكن بريئا من نزعة رومانطيقية في نظرته الى جوانب كثيرة من الحياة وتتضاعف هذه النزعة بحيث تطغى على نظرته الى الطبيعة التي كان واحدا من عشاقها المدنفين ومن هنا جاء لقبه العزيز عليه « شاعر المرج » .

لقد كان في العشرين من عمره يوم خرج الى الناس شاهرا شعره في وجه المنتدب الاجنبي وفي وجه الحاكم « الوطني » التابع ، محرضا العرب على اختيار الموت دفاعا عن حقهم في الاستقلال والوحدة :

عش عزيزا عربيا او فمت   فحياة الذل يأباها الابي
واطلب الوحدة لاستقلالنا   نحن لا نرضى حمى المنتدب

واذا بلغك نبأ هذه القصيدة، أين القيت وفي اي زمن صعب، لقدرت المدى الذي ذهب اليه تحدي الشاعر لغطرسة المنتدب الفرنسي وحرص الاتباع المحليين على مرضاته والامتثال لاوامره ثم لقدرت المدى الذي ذهبت اليه جراة الشاعر في اعلان انحيازه للعرب الثائرين في وجه المستعمرين والصهاينة .

لنقرأ في « الرأي العام » الدمشقية بتاريخ ١٦ ايلول ١٩٢٩ ما نصه حرفيا :

« القصيدة التي القاها الشاعر العربي الفحل المعروف بشاعر المرج السيد فؤاد جرداق في المظاهرة الكبرى التي تظاهر فيها خمسة آلاف عربي في مرجعيون من نواحي جبل عامل » .. حيث قال :

مت عزيزا دون حق العرب   لا تخف صولة صهيون الغبي
اي حر عربي يرتضي   ان يسام الذلّ تحت العطب ..

ثم يمضي ، في قصيدته ، مستنخيا الناس ومعبّئا ارادتهم نافخا فيهم روح الشجاعة والاقدام مذكّرا بالشيم العربية الرافضة للذل والاستسلام :

أيها الباسل سر منتضيا   فيصل الحتف ولا ترتعب
نحن قوم لا نطيق الذل بل   ندفع الضيم بحدّ القُضُب

وتراه يتمزّق حزنا ويشتعل غيظا وهو يقف على التراب العربي المزق ويستوقف ، ناظرا الى البلاد العربية كيف تقسّمت على انقاض الحلم بتحررها فتوحدها ، ضاحكا ، من فرط الوجع ، على تلك الدويلات التي انطلت عليها الخدعة الاستعمارية فسقطت في الخيانة واضحت سبّة الدهر :

قف بنا وانظر بلادا قسّمت   وانتحب حزنا وقل : وا حَرَبي

ودويــلات خنــى مضحكــة   خدعوهـــا باللهـــى واللعـب

والشاعـر اذ ينزف ويتدفق غضبا من المآل الذي آل اليه واقع العرب تراه ينهض كالمارد ، مشرعـا قلمه وصوته ، سيفـا مرصودا للجهاد فيشق، من جهــة ، حشاشـة الدخلاء ويفصل ، من جهة ثانيـة ، بين عربيـن عرب المستعمريـن الذيـن لا كرامة لهم ولا شرف ، وعرب التحرر والوحدة الابطال الاكارم وتلـك عمليـة فرز تقضيهـا العمليـة الثوريـة وكـان الشاعـر من السباقيـن الى الاشارة اليها ضمنا :

فيراعتـي سيف الجهاد ومقولي   عصب يشق حشاشـة الدخـلاء
في العرب ابطـال كـرام مآثـر   شمخت علـى النـواب والـوزراء

ولكـن حيـن يرى الى قومه وقـد فرّقتهم الاهواء شيعـا واغراهم الاعداء فتنابذوا وتخاصمـوا يعـود الى نفسه الكسيرة ويسائلها عن مصير تلـك الوحدة العربيـة الحلم العظيم ، تساؤلا ينضح بالمرارة لانطوائه على الجـواب الكـاوي :

كيف السبيـل لوحدة عربيـــة   والقـوم مختلفون فـي الاهـواء
اغراهـــم اعداؤهـم فتنافـروا   وتمزقوا كتمـــزق الاعـداء

على انه رغم هـذا الواقع المفجـع من التمزق والذل ، فهـو مـن الثقـة بنفسه وبأمتـه بحيث يتعهـد بالسعي لاحياء هذا الحلم العظيـم واستعادة الكرامة المهدورة والمجد المهدد بالضياع :

سأسعـى لأحي وحـدة عربيـة   تشـد عراهـا من مقيم وهاجـر
الىبيرق في سدرة العرب خافق   يوطّد اركان العلـى والمفاخـر

ثم هـو على ايمانه الركيـن بأن الامة المسلحة بالوعي لا تنام طويلا على الضيم وهي لئـن خضعت للجور فالى حيـن ثم يتفجّر البركـان الذي كان يختزن في الصدور والسواعد :

اذا خضعت للظلـم والجور امـة   لحيـن فخفهـا فهي ترنو وتسمع
فـان لثورات البراكيـن هجعـــة   تدل على نـار بهـا تتجمـع (١)

من هنـا لـم ينطفىء امله في تحرير فلسطين واستعـادة الارض المغتصبة والهويـة العربية المصادرة . والجرداق كان يعتقـد « ان القضيـة الفلسطينية هي امرع تجربـة للشعـوب العربية فهـي ولا شـك الحافز الاول الذي يجعلهم يهبـون من سباتهم كمـا انهـا المحرقـة التي احترقت باجيجهـا زعامـات باليـة ولسوف تحترق بلهيبهـا ايـد كثيرة تلوثت او

---

(١) جريدة «الاوقات العربية» ـ القدس في ١٦ اذار ١٩٣٥ .

قد تتلوث بالخيانــة » (١) .

على ان الجرداق ما انفك يشترط استخدام الكفاح المسلح من اجل تحرير فلسطيـن وتطهيـر القدس :

سيـروا الى طـرد الغـزاة باسيف بيض من الموت الزؤام صقـال
ونطهـر القدس الشريف من الخنى والرجس والفسـاق والانـذال

ثم بعـد ذلـك يكّحل ناظريه برؤيـة فلسطين الحبيبة رغم المكائـد التي يحيكهـا الزعماء العرب تضليـلا للجماهير العربيـة في واحدة مـن اقدس قضاياهـا ان لـم تكـن اقدسهـا على وجه الاطلاق :

ونرى فلسطين العزيزة كعبة الاعراب رغم مكائد الزعمـاء .

ثانيا : موقف الجرداق من الوضع اللبناني

اذا مـا التفت الشاعـر من موقفه العربي ذاك ناحيـة لبنان ، وقد صار امرا واقعـا من شأنه ان يبعث الشعور بالخيبة عند جمهرة كبيرة مـن الوحدويين مـن غيـر ان يعصف بالامل المتبقي في نفوسهم او يقضـي على الحلم النابض ابدا رغم مرارة الواقع وقتامته نقول اذا مـا التفت الشاعـر ناحيـة لبنـان ، وهـو في الصميم مـن هذه الجمهرة ، نسمعه ، فـي الحال يخاطبه بلغـة الحنيـن الى المهـد العربـي مسقطـا عليه اشواقـه نحو العروبة وتوقه الى وطنها الرحيب واعتزازه المكتمل بامجادهـا وسعادته الغامـرة بافراحهـا :

لبنان حن لمهـد يعرب رافعـا علم الجهـاد علـى رفيـع نجوده
وطـن العروبة شوق لبنان الذي احيـا الوفـا لقديمـه وجديـده
مجـد العروبة مجد لبنان ومـا أعيادهـا الا مقـدّم عيـده

بيد ان الشاعر سرعان مـا ينتفض كمـن اصابته البرداء حين يمعن النظـر في لبنـان عرضـا وطـولا وفي العمق ثم يصرخ بصوت كربلائي:

لبنـان باعث محنتي وبلائـي واسـاس كل ظلامتـي وشقائي

لماذا ؟ لانـه :

وطن سراحين الذئـاب تسوسه مـاذا يـدر لشعبـه تقديسه

وهذا هـو مطلع قصيـدة الشاعـر الشهيرة التي نظمهـا في ايام الانتداب واصفـا حالة بلاده يومذاك والتي اصبحت على كل شفة ولسان، ولم تجرؤ صحيفـة على نشر شيء منهـا في تلك العهود الا اقفلتهـا

(١) نقولا قربان . الهدف الاسبوعي - بيروت ٢٢ ايار ١٩٦١ .

السلطات فورا » (١) .

ومما له دلالة بليغـة ، في هذا السياق ما جاء في التعليق اللماح الذي توجّت به هذه القصيدة صحيفـة « الشعلـة » حيـن نشرتها بتاريخ ٢٥ كانـون الثاني ١٩٣٨ واليكم نص التعليق :

« هذه القصيدة لشاعـر المرج الاستاذ فؤاد الجـرداق ارسلها الينـا السيـد الفاضل خليل شديـد وقـد عثر عليهـا صدفة .. وهي مـن القصائد التي نظمهـا الشاعـر الثائر المتمرد في ايـام الارهاب والظلم .. قديمـا !!! .. (٢) .

مـا اخالكم بحاجة الى مزيـد من القول لشرح هـذا النص سـواء بكلمـاته او بالنقاط المدرجة فيه او علامـات التعجب .. خاصة علامـات التعجب بعـد « قديمـا » في الحديث عـن الارهاب والظلـم عـام ١٩٣٨ والمستعمر الفرنسي رابض بثقله الرصاصي على رئتي الوطـن والشعـب يستنزف القدرات ويقمع الحريـات . ولعلل هذه القصيدة بالذات تختـزل الكثير الكثيـر من قصائد الجرداق الوطنية وتتخطاها جميعـا او تكـاد في صحـة الرؤيـة وجراة التحدي والدقـة الصارمة في تشخيص الوضع اللبنانـي الشديد الاعتلال وفي وصف الدواء الناجع له .

فهذه القصيدة المعروفـة بسينية الجرداق الاولى، من حيث تمثـل خلاصـة اراء الشاعـر بمجمل الوضع اللبناني كمـا كـان يراه في عهـد الانتداب ، فهي تمثّل، في الوقت نفسـه ، موقفه المتمرد ، في اجرأ صورة واجلاهـا على جميع المؤسسات السياسية والاجتماعية حوله وعلى مختلف رموزهـا ، كمـا تمثل ، ايضـا ، موقفـه المنحـاز ، بايقـاع حاد ومتوتر لقـوى التغيير في مجتمعه .

من هنـا لا نرانـا من المسرفيـن اذا مـا اكثرنـا مـن الاستشهاد بابيات من هذه السينية على مواقف الجرداق التي التزمنـا بالحديث عنها دون غيرهـا .

انما لا يسعنـا ، في هذا الصدد ، الا تسجيل ملاحظتيـن اثنتيـن: الملاحظة الاولى تتعلق بحجم القصيدة فهي كـما نشرت في «الهواجس» لا تشكل سوى ثلثي ما نشر منهـا في « الشعلـة »ونصف ما نشر منهـا في « صباح الخير » (٢) . والملاحظـة الثانية ، الشديدة الارتباط بالاولى تتعلق

(١) من المقدمة النثرية للقصيدة في ـ «الهواجس» ص ٨٥ بيروت ١٩٧٤ .

(٢) المرجـع السابق

(٣) «صباح الخير» العدد ١٢ بيروت في ٢٤ حزيران ١٩٥٢ .

بشكل القصيدة وبعض محتواها ، فهي كانت عرضة للتعديل المستمر من قبل الشاعر ابتداء من المطلع ومرورا بالكثير من ابياتها او الاجزاء وتلك كانت حال الشاعر مع جل ، ان لم نقل مع كل ما نظم ونكتفي هنا بايراد ثلاث صور فقط عن مطلعالسينية الذائعة الصيت :

ففي « الهواجس » جاء المطلع : (١)

وطن سراحين الذئاب تسوسه ماذا يدر لشعبه تقديسه
وطن تطير من الاسى ارواحه وتثور من جور الطغاة نفوسه
عبثت بعزم الناهضات شيوخه وكذا بحزم الناهضين قسوسه

في حين جاء في « صباح الخير» (٢) :

وطن سراحين الذئاب تسوسه سغبت ضراغمه ونس حريسه
يدعونه الوطن المقدس هجنة ماذا يدر لشعبه تقديسه

اما في شريط مسجل بصوته (٣) فقد صار المطلع :

وطن سراحين الذئاب تسوسه وتعيث في قطعانه وتجوسه
وطن بعزم الناهضات شيوخه عبثت وحزم الناهضين قسوسه

ولكن مهما تعددت الصور التي تتخذها ابيات من هذه القصيدة ومهما قدم الشاعر فيها واخر او حذف منها وعدّل تبقى القصيدة على ذلك المستوى الرفيع من الاجادة في البناء الشعري والجراة في التحدي والصراحة القاطعة في الانحياز ، علاوة على لغتها الساخرة والصارمة وصورها اللاذعة في نقدها السياسي والاجتماعي والايديولوجي .

ولا بأس ان نقف قليلا عند الجانب السياسي من القصيدة في ضوء الواقع اللبناني .

لقد راينا الشاعر يرسم، بكلمات الشطر الاول من مطلع قصيدته، حقيقة هذا الواقع كما يعاين ويعاني منه فقد اختزل بكلمات اربع عالم وطنه الشديد التعقيد ، او انه طرح موضوعة هذا العالم تحت عنوان جذاب ومكثف تقرأ من خلاله تركيبة النظام الاجتماعي في لبنان قراءة تغريك بملاحقة الشاعر للوقوف منه على تفاصيل هذه التركيبة ومواد بنائها جميعا .

---

(١) « الهواجس » ص ٨٦ .

(٢) العدد ١٢ بيروت ١٩٥٢

(٣) مودع في مكتبة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي .

فالشاعر من فوره يفتح لنا الباب على مصراعيه ، في مثل الصدمة الكهربائية ، ويقول بصيغة الحكم الصارم :

هؤلاء ساسة وطنكم انهم جميعا ذئاب . يلفظ هذا الحكم ، خلافا للاصول الاجرائية المتبعة في فاتحة الجلسة ليعود ، بالتالي ، فينشر لائحة الحيثيات مفصلة ويسمي الاشياء باسمائها المجردة ، بلا خوف او وجل لا من المؤسسات القمعية ولا من رموزها وادواتها الشرسة في ذلك الزمن الاسود ، زمن الانتداب الفرنسي .

نعم انهم جميعا ذئاب انما هنالك منازل مختلفة تقابلها مسؤوليات مختلفة رغم ذلك فثمة معادلة تنتظم هذه المراتب والمسؤوليات جميعا في هرم واحد يتربع على قمته « السيد » المستعمر :

فهذا الوطن محكوم بتلك المعادلة :

وزراؤه اوزاره ورجاله اصلاله ورئيسه مرؤسه
وامينه خوّانه ، وعميده دسّاسه ، وزعيمه جاسوسه
وكذاك نواب البلاد نوائب نزلت فزاد من الاذى كابوسه
وتعدّدت اديانه فتلونت بطيوفها اردانه ولبوسه
لم يكف « لندنه » وما فعلت بنا «اسطنبوله» في الجور او «باريسه»

ثم يتوغل الشاعر في تفاصيل العلاقة بين سدنة النظام الطائفي شبه الاقطاعي العاملين في خدمة « السيد » الاجنبي سواء قدم غازيا من « اسطنبول » او من « باريس » او من « لندن » .. « فالكل اعداء الشام فكنسوا» على حد تعبير الشاعر القروي. وليس لتلك الخدمة في بلاط المستعمر سوى عنوان واحد عند الجرداق هو «الخيانة» ليس غير ، وللخيانة مرادف هو الخراب للوطن :

خانت حماه رجاله وهي التي امست وغربان الخراب تدوسه

من هنا :

يشقى به الحرّ الابي كما به يسمو اللئيم ويرتقي منجوسه

ولذلك :

ربضت على الصبر الجميل اسوده وتحكمت بالعاقلين تيوسه

الا ان الشاعر وهو في حمى تمرده على هذا الواقع الآسن وفي سورة غضبه على مؤسسات هذا الواقع واهلها تراه مسوقا بهذا الغضب الى حد اتهام الشعب بالخمول وادمان الكسل فالاشتراك في ارتكاب الفحش :

ما حال شعب خامل الف الونى يرتاد سائسه الخنى ومسوسه

ثم يبلغ الامر بالشاعر ، وهو في سورته تلك ، حد اسقاط الوطن برمته في حالة من حالات العدم او في وضع سديمي لا حجم له ولا شكل ولا ابعاد :

وطن بلا طول ولا عرض ولا   سمك ولا جرم فكيف اقيسه

رغم هذا الغضب المتاجج والنقمة العارمة بسبب اهتراء النظام اللبناني وخساسة اهله يظل شاعرنا الجرداق في موقعه الوطني الثابت كاليقين والمؤمن بحتمية التغيير مهما اشتد ساعد الطغيان :

قل للطغاة سيبعث الوطن الذي   بعثت من الجرف القديم نفوسه

بيد ان الشاعر لا يطلق كلامه في الفراغ لدغدغة الكسالى والخاملين انما يحدد شروطا لحتمية التغيير تلك وتسريع وتائرها ويضع في راس هذه الشروط النضال من اجل التحرير القائم على ارض صلبة من وحدة الجبهات او ، بلغة اليوم، وحدة العمل الجبهوي وبغير هذا النضال الدامي لا ينهض الوطن ـ الحلم :

ابني التحرر وحدوا جبهاتكم   يوم النضال وقد يثور وطيسه
وطن عليكم فليقم تشييده   وعلى الجماجم فليكن تأسيسه

واخيرا يرسم ، في خاتمة قصيدته الخطة الانجع لانتصار الشعب بكلمة لها صرامة القانون العلمي وصدقه :

الثورة الحمراء انجع خطة   لنجاح شعب كافر قديسه

وقد تجلى هذا الموقف السياسي عند الجرداق في ممارسات عملية غطت معظم عمره وقد دفع ، بسببها ، ثمنا باهظا من حريته ورزقه واستقراره . فمنذ صباه الاول عرف الطريق الى السجون والمعتقلات. وحسبنا هنا ان نشير الى واحدة من تلك المرات العديدة التي سجن فيها « شاعر المرج » وقيض لنا ان نقرأ صورتها بقلم الشاعر نفسه .

« قام في لبنان المتقمون فارادوا القضاء عليّ بالمكر والدس والخديعة والحيلة :

ارى الحق في هذي البلاد مشوها   وما كنت ارجو ان يكون مشوها
تأوهت من جور الزمان وعسفه   فقيل انظروا «الجرداق» كيف تأوها

« نصبوا لي الشرك بينما كنت انشد انشودة الحب والسلام فقالوا ان الجرداق سخط علينا وما كنت لأسخط على غير الاشرار والفاسدين ... فنسبوا الي التطرف بالاراء والمعتقدات ... وحكموا علي بالاعتقال في قلعة صيدا . بموجب الجزء الاول من « الهواجس »

وهو «المنعشات» (١) وقالوا انـي ادسّ فيه معتقداتي تحت جلباب الخمرة واغوي الناس ثم نقلوني الى قلعـة « السلميـة » ... وقضيت هذه الفترة من عمري معتقـلا في هاتيـن القلعتيـن كنت ارسل خلالهـا زفرات يخيل الي انها تحرق من ظلموني » .. ثـم يمضي الشاعـر السجين مسترسلا في الحديث حتى يستوقفه ظـلام السجن فيخاطبه :

« ما جنى الشاعر الطليق » اجبني   ياظـلام السجن الذي انـا فيـه
عذّبتـه الايـام طفـلا فقاسـى   كل هـول والبأس درع تقيـه (٢)

ومـا ان يخرج الشاعـر من ظلام سجنه ذاك حتى يساق اليه من جديد برفقـة صديقه « مير مسعد » (٣) في الايام الاولـى على تأسيس الحزب الاشتراكي وبسبب القيـام بالدعايـة لهذا الحزب ونشر مبادئـه وافكاره بيـن الناس .

وقد سبق للجرداق ان ألقى قصيدة في حفلة اقيمت لهذا الحزب في بيروت خاطب فيهـا المؤسس الاول أميل قشعمي :

فحلّق يا ابن قشعم فـي سماهـا   ورايـات الجهاد الحمر لاحـت

ويروي سلام الراسي (٤) ، وهـو واحـد مـن مؤسسـي الحـزب الاشتراكي في لبنان ، انه انطلق بصحبة الجرداق ، ذات يوم ، الى بلـدة « روم » للتبشيـر بمباديء الحزب ودعوة النـاس للانتساب اليه واذ بصاحبه الجرداق يعرّج على مقهى هناك ومـا ان يستقـر به المقام فيهـا حتى ينهض ويباغت جمهور الزبائـن بقصيدة لاذعـة يهجو بهـا الانتـداب الفرنسي واتباعه وفي طليعتهم اميل اده ومـا ان ينتهي مـن الالقاء او يكاد حتى تنقّض عليه قوات الامـن وتسوقه الى السجـن ..

ثم يروي سلام الراسي حادثة ثانية عن صديقه فؤاد جرداق فيقول : (٥) : « جئت صيدا والجرداق للاشتراك في التظاهـرة الكبرى التي اقيمت فيهـا دعمـا لانتفاضـة بنت جبيل‌عام ١٩٣٦ . وقد رأينـا كيف يتصدى جلاوزة السلطة لهذه التظاهرة ويعتقلـون عـددا من المشاركيـن فيهـا ويحيلونهم الى القضاء وفي موعد الجلسة المخصصة لمحاكمتهم يحتشد جمع غفيـر من الانصار امـام المحكمـة وقـد كنـا ، الجرداق وانا ، في هذا

(١) « المنعشات في مسارح الصهباء » ـ صيدا ١٩٣٠ .
(٢) « الناس » صحيفـة اسبوعية ـ بغداد في ١٧ اذار ١٩٣١ .
(٣) مقابلة شخصية مع مير مسعد في ايار ١٩٨٠ .
(٤) و (٥) مقابلة شخصية مع سلام الراسي ايار ١٩٨٠ .

الجمع ننتظر ما سوف تسفر عنه المحاكمة وفجاة يرتفع صوت الجرداق، القوي النبرة ويرتجل خطابا حماسيا تأييدا للمسجونين واشادة بهم وتنديدا بالسجانين وفضحا لهم فأثار الخطاب حمية الجمهور المحتشد بقدر ما اغاظ السلطات المحلية فأمرت بالقاء القبض عليه فورا وايداعه السجن .

ويطول ، يطول بنا الحديث اذا ما رحنا نتتبع مواقف الجرداق الوطنية فهي من الكثرة بحيث لا يستوعبها هذا المجال لذلك نكتفي قسرا بما ذكرنا على سبيل المثال ليس غير على ان تتاح فرصة اخرى، لنا او لغيرنا ، لرصد تلك المواقف جميعا وتسجيلها ليس من باب الوفاء فقط لواحد من ابرز الوجوه الثقافية والوطنية في جبل عامل بل خدمة ايضا لتاريخنا الوطني وتراثنا الثقافي على مستوى الوطن بكامله . هذا الوطن الذي احبه الجرداق الحب كله رغم الاذى الشديد الذي تحمّله من اجله وصنوف القهر والتنكر :

احبك يا لبنان حبا مبرِّحا وان بترت فيك الحكومات اطرافي
واهواك يا لبنان مهما تنكرت جفاتك لي من مجرمين وأجلاف

ولبنان هذا الذي يحبه الشاعر ويهواه هو غير لبنان الزمرة المنتفعة التي تعيث فسادا فيه وتستولي على ثرواته مستبدة بعماله ورجاله :

لبنان أخضعه الخضوع لزمرة عاثت بمورد رزقه وغلاله
وتقاسمت رتب الوظائف بينها وطغت على عماله ورجاله

مع ذلك كله فلا يرى نفسه اولا يريد ان يرى نفسه الا في صفوف المعذبين من بني وطنه اولئك الجنود الاسخى تضحية والاوفى عهدا اذا ما تهدد لبنان عدوان او اجتاحه مكروه :

ارى الناس ناسي في شقاهم شقاوتي
ولبنانهم يوم الكريهة لبناني

ثم يعود الى نفسه مؤكدا التزامه برسالة الحق ناذرا لها جهاد عمره وحسبه ما سوف يقوله التاريخ عنه :

الا في سبيل الحق فعلي وقفته
وفي ذمة التاريخ فضلي واحساني

ثالثا : موقف الجرداق من القضية الاجتماعية

على مثل ما كان من الرفض من جهة والانحياز من جهة ثانية في موقفه من الوضع السياسي في لبنان كان في موقفه من القضية

الاجتماعية .. ولعل الشاعر من هذه القضية بالذات ، كان اعلى نبرة واصح رؤية الى جانب كونه اسلم كشفا لجوهر الصراع على الساحة الاجتماعية في لبنان وفي كل مكان .

فهو ، على هذه الساحة ، يكتشف قانون الصراع بحس طبقي نافذ مؤسس على معاناة شخصية جارحة ومدعّم بوعي كان يغتني تباعا من خلال التجربة وقراءة الفكر السياسي في آن معا .

وقد سبق لنا واشرنا الى اسباب موضوعية اسهمت في تشكيل هذه المعاناة الجارحة وفي وسعنا ان نحدد هنا ان السبب الرئيس بين تلك الاسباب جميعا كان الوضع الاقتصادي المتواضع الذي استقبل فؤاد جرداق يوم ولادته ورافقه سحابة عمره . فتحت ضغط هذا الوضع ، مثلا ، ما كان لاهله ان يختاروا له ، لتلقي علومه الاولى ، غير المدرسة الرسمية او مدرسة الحاكم كما كانت تسمى في ذلك العهد . في حين كان معظم اقرانه ، من الاطفال والصبية ، يدلفون الى المدارس الاهلية الاربع التي كانت عامرة بها مرجعيون ومقصودة من اجلها من قبل الطلاب في خارجها .

وما ان وقفت به عجلة المدرسة الحكومية عند حدود المرحلة الابتدائية واراد ان يتابع طريقه متجاوزا هذه الحدود حتى اعترضه الوضع الاقتصادي فلم يجد امامه سوى باب الدير فولجه وارتدى ثوب اهله لا عن قناعة بهذا الثوب إما قن حاجة له ليكون المنفذ الى تحقيق طموحه الى العلم والمعرفة وليس ادل على هذه الحقيقة من اعتراف الجرداق بها في سياق حديثه عن ايامه في دير المخلص فيقول :

« كنت اكتب مذكراتي في الكنيسة ليلا على نور شمعة ضئيل في دفتر صغير اخبئه في جيب بطانة جبتي السوداء ... وقد حكم علي بالسجن شهرا في الدير بسبب تعليمي الرهبان الاخرين معتقداتي التي تنافي ومعتقدات رفقائي الرهبان» (١) .

ولم يمض عليه طويل وقت حتى يخلع الثوب الكهنوتي ويغادر الدير بصحبة عدد من اولئك الرفاق الرهبان الذين تمكن من اقناعهم بقرار الانصراف عن الرهبنة هذا القرار البالغ الدلالة والبالغ الجرأة (٢) .

ان هذا الواقع الاجتماعي الذي واجه الجرداق منذ طفولته الاولى

---

(١) «الناس» المرجع السابق

(٢) مقابلة شخصية مع الفرد ابو سمرا - ايار ١٩٨٠ .

جهزه بحس طبقي شديد النفاذ ثم جاءت تجارب الحياة فارست هـذا الحس على اساس من الوعي الذي اثرته الثقافة وصقلته .

وكما كان الجرداق يجتهد لاغناء حياته بالاكتشافات والتجارب كان يجتهد، في الوقت نفسه، لاغناء فكره بالمعارف الانسانية ولا سيما تلك المتجاوزة المألوف والمتحدية المتعارف في بيئته وهل ادل على ذلك من اعتناقه للاشتراكية ومن صحبته المبكرة لتلك الوجوه التقدمية من ابناء بلدته، التي لعبت دورا تأسيسيا في نشر الفكر الاشتراكي والوعي الطبقي وفي ارساء القواعد الاولى لحزب الطبقة العاملة ليس في قضاء مرجعيون فحسب بل في بقية انحاء الجنوب .

وثمة اجماع في القول، بين اهل الجرداق واصحابه ومعارفه، بانه كان من اشد الناس ادمانا على القراءة واكثرهم صحبة للكتب الادبية والعلمية وفي المخطوطة التي وضعها تحت عنوان «علم وفلسفة – نظرات وملاحظات » في نيسان عام ١٩٣١ (١) ما يؤكد صحة هذا القول .

من هنا فقد لا نجد من الغرابة في شيء اذا ما قرانا للجرداق، وهو في شرخ الشباب بعد، كلاما يشف عن سعة اطلاع ثم، وهذا ما يهمنا هنا، عن وعي طبقي مبكر تمكن من الامساك بالعلاقة التناقضية بين المستغِل والمستغل وعمل على كشف اسبابها للناس وابراز اثارها المدمرة في المجتمع ولنتأمل هذه الصورة التي رسمها لتلك العلاقة، باقتصاد شديد بالكلمات على وضوح مفرط وكان يومذاك في العشرين من عمره:

تسقي الثرى بدموع وتزرع الفقراء
فتستغل ثراها وتحصد الاغنياء (٢)

ثم نجده يؤكد هذا المعنى باصرار عنيد في الكثير من قوله الشعري كما في خطبه ومجلسياته وان باشكال متعددة وصور مختلفة. ففي احدى رباعياته يقول :

يكد ويسعى دون تحصيل قوته فقير، فيسبي القوت منه غني
أفي العدل اعدام الضعيف حياته ليحيا بها في ذا الوجود قوي ؟

وفي رباعية ثانية يضع الموسى على المفصل بقوله :

فرقة في العراء تغزل قسرا من قواها لنسج بيت سواها

ثم في رباعية ثالثة يتجلى هذا المعنى في مثل المعادلة الرياضية:

الناس قسمان، مكدود ومنتفع هذا من الرزق محروم وذا جشع

---

(١) محفوظة لدى ابنه وسام .

(٢) «المرج» مرجعيون في ٣ اب ١٩٢٩ .

وحين يرى بعينيه النقدية الى ما يجره الاقطاع من مآس اجتماعية في الريف ، وهو ابن الريف العاشق، يكتشف واحدا من قوانين الاقطاع البالغة القسوة والجور على الفلاحين :

اني العدل أن يستملك الفرد ثروة ... من الارث جاءت بالخديعة والغبن؟!
وان الوفا ليس تملك مدفنا ... وفردا له ملك الالوف من الفدن؟!

واذ يطرح الجرداق المسالة الاجتماعية على هذا المستوى من الوعي الطبقي ويصر على صياغتها بمختلف الصور والاشكال البالغة الوضوح والسهلة على الحفظ فالتداول فمن اجل تعميم هذا الوعي وتجذيره في مجتمعه ثم من اجل ان يتحول هذا الوعي قوة مادية تعمل على هدم النظام الاجتماعي القائم في لبنان والقضاء على رموزه جميعا :

اللابسين من الزعامة حلة ... حمراء خضبها دماء الناس
والاكلين اللحم من اكتافنا ... والسالبين بقية الانفاس
والواضعين ثراءنا بجيوبهم ... والقائدين الشعب بالمساس

وحين نعلم ان هذه الابيات هي من قصيدة طويلة رثى بها الشاعر عاملا طليعيا (١) من ابناء بلدته سقط ضحية عمله ومطلعها :

دع ذكر عهد اليسر والايناس ... واذكر عهود البؤس والافلاس

نقول حين نعلم ذلك ونطلع على بقية القصيدة وما تضمنته من صور التوعية والتحريض الشديدة التوهج، نعرف الموقع الذي اختاره الشاعر على الصعيد الطبقي في لبنان، فهو معاد، عداء لا هوادة فيه لمصادري ثروة المجتمع وناهبي خيراته «الاكلين لحم البشر والسالبين انفاسهم» ، وهو، في الوقت نفسه، منحاز انحيازا عنيدا، للفقراء والمظلومين والمعذبين في وطنه : منحاز لقضية المستغَلين في وجه المستغِلين :

ولا بد ان تشقى من الناس فرقة ... لتسعد اخرى في بلادي وتبطرا
وشاء زماني ان اكون مجندا ... مع الفرقة الاولى فكنت كما ترى

وفي غمرة انخراطه في مسيرة الدفاع عن حقوق المظلومين والمسحوقين بالكلمة حينا وبالممارسة العملية احيانا، ولا سيما غداة قيام الحزب الاشتراكي في لبنان ثم انتقال اصدقائه، من المؤسسين، الى النضال داخل الحزب الشيوعي ، انتقل هو الى ، موقع متقدم من القضية الاجتماعية بعد ان راى وجه الطبقة العاملة على حقيقته واكتشف دورها التاريخي في العملية الثورية فهتف بحماس المقاتلين داعيا الى الزحف تحت بيرق هذه الطبقة الارجواني :

---

(١) هو ادمون الطيار ـ عامل كهرباء صعقه التيار فمات .

يابيرق الحمر حياك الاولى اندفعوا ليردعوا الظلم من عسف وعدوان
يا بيرقا تحته الاحرار قاطبة تطوعت للنضال الاحمر القاني
في قلبه «منجل» في حد مفصله سيحصد الجور ، لا طاغ ولا جان
وفيه « مطرقة » العمال ساحقة رؤوس رجعية تهوي بعمران

ثم لا يجد خاتمة لدعوته تلك سوى التحية الحارة يرفعها الى هذا البيرق وهو يتماوج في كبد السماء :

فليحي بيرق حمر في سماء عليّ وليحي ناصر انسان لانسان (١)

وعلى هذه الساحة ايضا، ساحة القضية الاجتماعية ظل الجرداق على ايمانه الوطيد ذاك بحتمية الانتصار كما على الساحة الوطنية. والمنهزم في هذه المعركة هو من :

يبتز اموال الفقير مفاخرا ويقول : هذا ما تنص طقوسه
فلسوف يعلم ان ستسحق ظله يوما « مطارق » عزمنا «وفؤوسه»

والشاعر اذ ينقض ، بهذا القول، المقولة الطبقية التي تدعي الديمومة للاستغلال الطبقي تنفيذا لشريعة ثابتة لا تزول او تحول فانما ليقدم برهانه العلمي على زمنية هذه الشرائع وعلى كونها نتاج المجتمع : وليس بهابطة من المحل الارفع كما يزعمون :

لكل شعب قوانين وانظمة وعلم شرع بحكم العقل مسنون
ليست شرائع هذا الناس ثابتة فكل عصر له شرع وقانون

واخيرا ينتهي الجرداق، من المعاينة النقدية والمعاناة الموجعة، الى راي قاطع يقول : لا حل لمشكلة الظلم الراهنة الا بتغير النظام الاجتماعي القائم فالظلم ، كالعدالة ، لا يعدو كونه من انتاج النظام الاجتماعي في هذا المجتمع او ذاك وحيث ان نظاما قد نهض في العالم على اساس من العدالة لم تعرفه البشرية من قبل اذن فلا امل لنا يرتجى الا بهذا النظام :

الظلم في الناس مثل العدل مشكلة في ظل هذا النظام الفاسد الجاني
لا يرتجى حلها الا بانظمة «تبلشف»الناس من قاص ومن دان(٢)

رابعا : الموقف من الطائفية والمعتقد الديني

لعل الجرداق يأتي في طليعة المحاربين الاشداء ضد وباء الطائفية المستشري في لبنان، وضد جميع الاشكال التي تتجلى فيها الطائفية. والجرداق، في هذه الحرب، ما كان يعرف الهوادة ولا يخاف من نقمة

---

(١) « الشعلة » بيروت ٩ كانون الثاني ١٩٣٨ .

(٢) مخطوطة « رباعيات الجرداق» المحفوظة لدى وسام جرداق .

باغ او يخشى من لومة لائم . وكان في كثير من الاحيان يتجاوز كل حد في تحديه لرموز الطائفية في زمن كان السلطان فيه وقفا على التحالف الوثيق بين الاقطاع والكهنوت داخل كل طائفة من جهة وداخل مجمع الطوائف من جهة ثانية .

ولا نقصد من هذا القول ان شاعرنا كان منفردا في هذا الموقف البالغ الجراة في ذلك الزمن، لا، فالحقيقة ان الجرداق، في موقفه هذا، كان يتحرك على قاعدة ارساها ادب النهضة واعتمدها الادب الطليعي في جبل عامل . ولعلنا لا نبالغ اذا ما قلنا بأن هذا الادب، اي ادب النهضة، وان تحلى بمزايا عديدة ومهمة انما اهمها جميعا هي ميزة التمرد على سلطتي الاقطاع والكهنوت. وربما يكون من المتعذر علينا، في هذا المجال، استعراض تجليات هذا التمرد في ادب النهضة، انما حسبنا، ان نشير الى تلك السلسلة الذهبية من اعلام هذا الادب الشوامخ امثال الشدياق، وبطرس البستاني والشميل والريحاني وجبران ونعيمة ومارون عبود وغيرهم ...

واذا اقتطفنا هنا، قولا للريحاني دون غيره من هؤلاء الاعلام فلان علاقة شخصية قامت بينه وبين شاعرنا الجرداق سنأتي على ذكرها لاحقا مكتفين الان بايراد النص ـ الشهادة من اقوال الريحاني :

«اما الكهان فهم اول من عاثوا في الارض فسادا وهم اول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها وهم اول من تاجروا بالخداع والتغرير»(١).

واذا اضفنا الى ادباء النهضة شاعرين من العراق كان لهما شأن كبير على هذا الصعيد نعني صعيد الوقوف في وجه سلطتي الاقطاع والكهنوت وتعرية اساليبهما في خداع الناس وكشف اباطيلهم ، والشاعران هما : الزهاوي والرصافي وقد كان للجرداق صلة بهما توثقت بعد زيارته للعراق كما كان له صلة قوية بالشاعر احمد الصافي النجفي. هذا ولا يغيبن عن البال في هذا السبيل ذلك المستوى من الجراة على الاقطاع وحلفائه الذي بلغه فريق من شعراء جبل عامل في ذلك العهد يتقدمهم موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبدالله وعبد المطلب الامين وغيرهم..

ولعل في اختيار ابيات قليلة من الشاعر موسى الزين شرارة في هذا الموضوع ما يساعدنا على فهم تلك المرحلة من تاريخ جبل عامل، وعلى

---

(١) « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » ـ اتحاد الكتاب اللبنانيين ـ بيروت ١٩٧٩ ص ١٧٣ .

فهم فؤاد جرداق بالذات .

يقول شرارة :

فكيف يبرأ هذا الشرق من سقم ومدية الدين تفري في حشاشته
الشيخ حول للتفريق جامعه والقس يبذر حقدا في كنيسته

اذن والحال هذه فلا بد ان يقف الجرداق من الكهنوت ذاك الموقف الذي عرف به في مختلف الاوساط. ولعل قصيدته السينية تشكل العينة النموذجية عن موقفه ذاك فهو يقول فيها :

شيخ « بجامعه » يريد تفردا في دينه فيغره مانوسه
ويقوم « قسيس الكنيسة » داعيا لصليبه ويعينه « ناقوسه »
ويهب « حاخام » اليهود مسابقا زملاءه حتى يضج « كنيسه»

على ان الشاعر يبدأ قصيدته هذه بالانقضاض المباغت على الكهان متهما اياهم باعاقة النهوض في وطنه واشاعة الخمول والتقاعس والافساح في المجال امام سطوة المتسلطين :

عبثت بعزم الناهضات شيوخه وكذا بحزم الناهضين قسوسه
ومشى مع الطرفين يسحب ذيله متلكئا بالمشيتين رئيسه
فيتله لامامه «محموده» ويشده لورائه « طنوسه »

اذن فهذا هو، بالتحديد، دور الكهنوت، في اعتقاد شاعرنا، وعلى هذا الدور يعتمد رئيس البلاد اي رمز النظام الطائفي في لبنان .

واذ نكتفي هنا بهذا القدر اليسير من قول الجرداق الشعري في الكهنوت فلنفسح له قليلا في المجال يحدثنا بنثره وممارسته العملية حول هذا الموضوع بالذات .

يقول الجرداق : (١)

«وان اكبر طابع ديني يسيطر على العقول منذ القرون الوسطى انما هو الكنيسة التي تدخلت في كل شيء حتى في الحياة المنزلية».

ويروي الاصدقاء عنه احاديث كثيرة تترجم موقفه من الكنيسة ورجالها وتؤكد تمرده عليها بسبب تحولها الى مؤسسة سلطوية ـ قمعية غريبة عن تعاليم السيد المسيح بل هي مخالفة لها. وكثيرا ما كان يجاهر بهذا الراي ولا سيما في بعض المناسبات التي يستغل فيها الدين استغلالا بشعا لتحقيق مكاسب سياسية او مادية وذلك بتأجيج المشاعر الطائفية الرخيصة لدى جمهور غير واع من المؤمنين . ويضرب اصدقاء الجرداق امثلة عديدة عن مواقف بالغة الجراة قد اتخذها في تلك المناسبات منها

(١) « علم وفلسفة ـ نظرات وملاحظات » مخطوطة ١٩٣١ محفوظة لدى ابنه وسام جرداق

وقفته المشهورة في وجه الحملة الطائفية التي ارتدت ثوب الاحتفال بتمثال السيدة العذراء، في بلدته، بمناسبة السنة المريمية.

يحدث الاصدقاء عن هذه الوقفة فيقولون : (١) كان الشارع الرئيس في مرجعيون يغص بالمحتفلين يتقدمهم التمثال المحاط بغابة من الرايات والاعلام وخلفه مباشرة يسير رجال الكنيسة في ابهى حللهم وازهى البستهم واذ بصوت الجرداق، المعروف بنبرته القوية الآسرة، يرتفع في سماء الموكب الاحتفالي فيشق الجلبة العظيمة ويخلخل انتظام الناس ثم يسمر العديد منهم حيث ارتفع الصوت الجرداقي الذي راح يندد بهذا الاحتفال الطائفي كاشفا عن مراميه واغراضه مؤكدا منافاته لتعاليم السيد المسيح مقارنا بين حياة السيد البالغة البساطة والتواضع وبين حياة رجال الكنيسة الحافلة بالترف الباذخ والأبهة ثم اخذ يخاطب الناس منشدا :

اباة الونى والضيم شم المعاطس ليوث الشرى نسل الاباة الاشاوس
بني امتي هل ثورة من جهنم لتقضي على اهل الريا والدسائس
فزجوا رجال الدين في معقل الدجى ودكوا حشاهم بالرحى والمكاوس

ولكن قبل ان ينتهي الشاعر من تلاوة قصيدته يداهمه قمع السلطة المحلية فيلقي القبض عليه فورا ويساق مخفورا الى السجن..

ولو وسعنا المجال هنا لروينا الكثير من تلك الحوادث التي كانت حياة الجرداق حافلة بها انما يتعذر الامر علينا الان فعسانا نتوفر على تسجيلها مستقبلا .

وهكذا كان شاعرنا يقرن القول بالفعل في سياق التعبير عن تمرده الجريء على الكهان وعن رفضه لسلطتهم القمعية والاستغلالية .

على هذا النهج نفسه كان يترجم ايمانه الثابت بحرية المعتقد والتسامح الديني. وقد اشرنا، سابقا، الى انه، وهو المسيحي مولدا، لم يتردد في ان يسمي اولاده الثلاثة باسماء اسلامية: احمد وسام وزينب وفاء ثم علي حسام الذي فقده رضيعا .

ونحن، وان كنا نعلم في هذا الصدد، ان عددا من رواد الفكر المتحرر ، مثل مارون عبود (٢) وغيره ، قد سبقوه الى هذا الاختيار المعبر في تسمية الاولاد فنعلم ايضا ان هذا السبق لا يقلل من قيمة واهمية اختيار الجرداق لهذه الاسماء بالذات. فهذا الاختيار ان دل على شيء

(١) « من مقابلات شخصية مع السادة : مير مسعد والفرد ابو سمرا وسلام الراسي وجورج زوربا وغيرهم من اصدقاء الجرداق وابناء بلدته .

(٢) سمى ابنه محمدا عام ١٩٢٦ .

فانما يدل على تلك الدرجة العالية من التسامح الديني التي بلغها شاعرنا والتي ارتقى بها حتى الدخول في مراتب الصوفية. وهنا لا يسعنا الا الوقوف قليلا عند هذه المحطة البارزة في حياة الجرداق الفكرية والروحية وذلك لغايتين اثنتين :

اولا من اجل ان نعرف المزيد عن تأثره باعلام النهضة ولا سيما اولئك الذين تيسر له ان يقيم معهم بعض الصلات الشخصية امثال الريحاني ومارون عبود .

وثانيا من اجل ان نقف على حقيقة موقف الجرداق من المعتقد الديني بعيدا عن الضجة التي حاصرته في هذا الموقع ردحا من الزمن .

قد يكون من الظواهر المدهشة في حياة الجرداق تلك الصلة الشخصية التي انعقدت بينه وبين امين الريحاني رغم ذلك الفارق الكبير بينهما ان في السن او في المنزلة الادبية. ويشاء حسن الطالع ان يتبقى لنا من اثار هذه الصلة رسالة موجهة من الريحاني الى الجرداق يرجع تاريخها الى ١٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٦ (الجرداق مولود سنة ١٩٠٩) .

لقد جاء في هذه الرسالة :

«عزيزي الاديب فؤاد جرداق حفظه الله او حفظ الله فيه وكلمة اخرى دمت محفوظا بما فيك من الالوهية». وبعد كلمات مجاملة قليلة يتابع الريحاني :

«ان شعورنا بالواجب، وشعورنا بالحب الروحي، وشعورنا بالجمال الذي يجذب اليه القلب والعقل بل شعورنا بالله نفسه انما هو ناشيء عن الالوهية فينا » .

«وهذه الالوهية، كما قلت مرارا، تختلف كميتها في الناس وتكاد لا تكون في بعضهم. الالوهية هي مصدر الشعور، هي مثل العقل وهو مصدر الادراك» .

ثم يخاطب الجرداق قائلا :

«اما قولك ان هذا الاعتقاد يجعل الله مقيدا كالانسان فهو اذا صح نصف الحقيقة فقط والنصف الاخر هو ان الانسان حر مطلق في عقليته وروحه مثل الله » .

«لا قيد في المادة لان المادة في انحلالها وتحولها وتنوع اشكالها هي برهان حريتها بل برهان الناموس الحر فيها وما الناموس غير الله» .

ان هذه المقاطع من الرسالة تثبت اولا، ان ثمة تبادل رسائل كان يجري بين الريحاني والجرداق وتشير ثانيا، الى ان حوارا كان يدور بينهما

حول الالوهية والانسان وتبين، ثالثا، ان الجرداق وهو في تلك السن المبكرة «١٧ سنة تقريبا» كان يشغله هذا الموضوع الخطير ثم كان يجادل فيه علما من اعلام النهضة .

لا بدع، اذن، ان يلتجيء الجرداق الى الصوفية فيجد فيها الحل المثالي لتناقضات مجتمعه الذي كانت تمزقه انياب الطائفية والاقطاع تماما كما وجد فيها الكثير من رواد النهضة الكبار امثال الريحاني وجبران ونعيمة وغيرهم، «صورة المجتمع الحضاري الذي ارتسم في وعيهم. المجتمع الذي تأتلف طوائفه في وحدة قومية علمانية انسانية هي الاساس الصلب لكل نهضة» (١) .

وكان من الطبيعي ان تمر الطريق الى الصوفية بمحطات الشك بكل المعتقدات والقيم السائدة في مجتمعه. يقول الجرداق : «انني اشك في كل شيء حتى في الحق والوجود » (٢) ويحاول ان يصور في احدى رباعياته تلك المراوحة المرة بين الشك واليقين :

اسير وظل الشك يجري بجانبي وأسري وطيف الكفر في جانبي يسري
تولد من شكي يقيني فأشرقت ظنوني وايماني تولد من كفري (٣)

واذ يطبق عليه ليل الشك بنفسه وبالعالم ويعتصره التساؤل الساحق يصرخ في وادي هذا الكون باحثا عن وجهه الضائع فلا يأتيه غير الصدى المتسائل هو الاخر :

صرخت بوادي الكون اسأله من انا ؟
اجاب الصدى من وادي الكون من انا؟
اجبت الصدى انت الذي قال : من انا ؟
اجاب الصدى، انت الذي قال : من انا (٤)

وحين تذهب صرخته في الوادي عبثا يركب جناحي طائر الاسطورة ويصعد في السماوات باحثا عن وجه الخالق :

تجردت من جسمي الهيولي طائرا افتش في الافلاك عن خالق الكون
فلم الق ما ارجو وقلت لعله هو الكون ما ارجو فذبت من الحزن

على ان الشاعر يعود الى ما يشبه الامل في القدرة على استكناه

(١) عفيف فراج « الادب في الثقافة الوطنية » ، من ابحاث « الثقافة الوطنية على خط المواجهة » المرجع السابق .

(٢) فؤاد سجعان جرداق «المنعشات» صيدا ١٩٣١ .

(٣) «الهواجس» ١٩٧٤ ص ٣٤ .

(٤) «الاقلام» لصاحبها حليم دموس بيروت ٤ حزيران ١٩٣٢ .

سر الوجود بعد ان يصغي الى صوت العقل ولغة الحواس :

رب يـوم بـه ستبـدو الخفايـا فيسـود النهـي ويسمـو القياس
ليس هذا الوجـود صدفة جهـل هكذا العقل قـال لي والحـواس

ثم ينتقل الشاعر، بعد هذه المرحلة، الى العالم اللامتناهي الى عالم الصوفية حيث لا فناء وانما حياة ابدية سرمدية وان في صور من التناسخ التي لا حدود لهـا :

باعتقادي لا شيء فـي الكون يفنـى ولذاك الوجـود لا يتناهـى
انمـا الموت حالة يستحيـل المـرء فيهـا مـن صورة لسواهـا

وقد صاغ الشاعر هذا المعنى في قصيدته التي القاها في المهرجان التأبيني الكبير الذي اقيم لجبران خليل جبران في اهدن يوم وصول جثمانـه اليها عام ١٩٣١ (١) .

كـل مـن مـات بالحقيقـة حـي مستحيل في دورة مـن زمـانـه
فهـو باق في الكون شيئا ولكـن بـدل الموت صـورة فـي كيانـه

وفي «المنعشات في مسارح الصهباء»، يقول الجرداق عن منعشاته: «.. وهي اول هاجس من «هواجسي» بل اول قبس من نور نفسي وهذا النور جزء من كل ادعوه قوى الكيان او الله...» (٢) .

والريحاني يدعوه «الناموس» او الله كما جاء في رسالتـه الـى «عزيزه» الجـرداق .

من هذا كله يتبين لنا بوضوح، لا لبس فيه، ان الجرداق رغم موقفه الرفضي والمتحدي من المؤسسة الدينية ومن كهنتها جميعا ثم رغم حيرته وشكه ، كان مؤمنا في الصميم انما على طريقة اهل التصوف او طريقـة الريحاني ونعيمة وغيرهما من رواد النهضة القائلين بوحدة الوجود ومذهب التناسـخ او التقمص :

انـا المبدع المخلوق قدما ولـم ازل الى ابد الدنيا بديعـا ومخلوقـا
فمـا انا الا فيض عقـل مكهـرب تقمص ذرات العناصر منسـوقـا (٣)

الا يذكرنا هذا القول بما كان يصدر عن السنة اهل التصوف مـن المسلمين وهم يدخلون في «حال من الشعور الخفي» بعد «سفرهم الروحي»

---

(١) كان الجرداق احد ثلاثة شعراء تميزت قصائدهم بالجودة في هـذا المهرجان والشاعران الاخران همـا الاخطل الصغيـر والياس ابي شبكـة .. في الاصل « ان جبـران فـي الحقيقـة حي » .

(٢) فؤاد سجعان جرداق « المنعشات .. » ص ٧ . صيدا ١٩٣٠ .

(٣) من « رباعيـات الجرداق » .

الطويـــل ؟

الم يهتف البسطامي، منذ ما يزيد عن الف ومئة سنة، : « سبحاني مـا اعظم شـأني » ؟

ثم الم يتبعه الحلاج بالقول : « انا الحق » ؟

من هذه اللغة، لغة اهل التصوف، المشحونـة بالرموز واصـوات الشطح، تناول الجرداق مفرداته فصـار، من خلالها «الخالق والمخلوق» فـي آن معـا .

هوامش ختاميـة :

لقد اشرنا، في مطلع البحث، ان حديثنا عن فؤاد جرداق، الشاعـر والانسان، سيقف عند تخوم المواقف الاربعة التي رأينا انها تمثل الوجـه المسيطر في شعره وفي حياته على حد سواء . هذا اذا ما ارجأنا القول في خمرياته على علو منزلتها عنده وجلال مقامها، واذا ما اسقطنا من حسابنـا تلك القصائد او المنظومات ذات الاثر الاني والبالغ الخصوصية، التي كـان يرسلها في المناسبات المحلية الضيقة .

واذا ما شددنا، في هذا البحث، على الوجه المسيطر في شعـره وحياتـه .

وهو الوجه المتعامل بحرارة مع الواقع الاجتماعي والمتميز بخطيـن محوريين متلازمين يعكسان، بصدق وعصبية، حركة هذا الواقع ولا سيما في تجلياتها الاجتماعية والسياسية، وهما خط التمرد علـى المؤسسـات القائمة والقيم السائدة وخط الانحياز لتيار التقدم ورموزه على الصعـد الوطنية والقوميـة والاجتماعية والايديولوجية .

نقول إذا ما شددنا على هذا الوجه فلا يعني ان الجرداق محاصر في حدود هذا الوجه لا يتعداها فالواقع يكذب هذا الزعم الذي لا نتبناه كمـا يثبت في الوقت نفسـه امتلاكه للامح متميزة اغفلنا الحديث عنها لضيـق في المجال وليس لضآلة في القيمة او فقـر في التاثير . وليس من المبالغة في شيء القول بان انصراف الجرداق الى الخمرة في قوله وفعله ليشكل ابرز هذه الملامح واشدها جاذبية. وللخمرة عنده معنى ليس الا عند الخاصة من الناس. وهو في انصرافه اليها يصدر عن الاراء والاشواق التي صـدر عنها «الخيام» على وجه الخصوص. من هنا جاء لقبـه الاخر «خليفـة

الخيـــام » (١) .

وقد وقف عليها، اي الخمرة، مجموعته الشعرية الاولى «المنعشات في مسارح الصهباء» (٢) ثم جاءت في فاتحة مجموعته الثانيـــة والاخيرة «الهواجس» (٣) حيث يقول فيها :

ومـــا خمرة الجـــرداق الا عفافـــــة ونـــور باقياس الطلاســـم احيانـــا
اذا مـــا حساها ثاقب الفكر قـــاده الى الشك حينـــا والتيقن احيانـــا

ثم هناك ملمح اخر، عميق وساطع، في وجه الجرداق،، الا وهـــو عشقه للطبيعة واقترانه الصوفي بها وتطوافه حول جمالها المقدس، مـــن ذلك جاءه اللقب الاثير عنده والعزيز عليه «شاعر المرج» هذا السهل المترع باسرار الطبيعة وابهى تجلياتها واخصب اياديها :

فمن رام ان يدري الجنـــان وحورها ليسكن رياض المرج في البان والرنـــد

اما موقفه من المراة والحب فموقف متحرج حائر يميل نحو اليقيـــن فالطمأنينة حينا ونحو الشك والاضطراب احيانا وتبعا لذلك يتراوح بالمراة بين العبادة والادانة المطبقة فبينما يقول :

ان الفتـــاة المستنـــــــار جمالهـــــا بالعقـــل والاخـــلاق والعرفـــان
لـــو لـــم تكـــن مخلوقـــة لعبدتهـــــا وجعلتها عنـــــدي الاله الثانـــي (٤)

واذ به يقـــول :

داء النســـاء دفيـــــــن فمـــا لهـــن عـــــلاج
بكـــــاؤهـــن ريـــــــاء وضحكهـــــــن غنـــــــاج

واخيرا يردد نظما ما نسب للامام علي من قول :

انمـــــا المرأة شر كلهـــــا شر منهـــا انه لا بـــد منهـــا (٥)

---

(١) « خليفــة الخيام ، الفيلسوف الشاعــر فؤاد جرداق » لمؤلف عراقي اسمه غـالـــب الناهي . لم اعثر على اثر لـــه رغم البحث الدقيق انمـــا اشارت اليه جريدة « صدى الجنوب » في عددهـــا الصادر بتاريخ ٢٩ تموز ١٩٤٩ بمناسبة حصولهـــا على نسخـة منه كهدية من المؤلف وقد اضافت الجريدة « بحث هذا الكتـــاب فـــي فلسفة عمـــر الخيـــام الانقلابيـــة وتشاؤمه وصوفيته واوجه الشبه والاختلاف بينه وبيـــن المعري وغيره من الغربيين ثم يتطرق الى شاعرية الجرداق وفلسفتـــه اللاابالية والانقلابيـــة واوجه الشبه والاختلاف بينه وبيـــن الخيـــام » .

(٢) مطبعة العرفان ـ صيدا ١٩٣٠ .

(٣) مؤسسة مطابع معتوق اخوان ـ بيروت ١٩٧٤ .

(٤) من المخطـــوطة الموجودة في حوزة ابنه وســـام .

(٥) من المخطوطة الموجودة في حوزة ابنه وسام .

بيد ان موقفه من الزواج كمؤسسة فواضح وصريح فهو متمرد عليه رافض لسلطانه .

«وكان يعتبره قيدا ثقيلا، وكثيرا ما كان يسميه استعمارا من نوع اخر » (١) وحين سأله صاحب القلم الصريح ذات يوم : « لماذا بليت وبليت وتزوجت » اجاب :

لولا انتقامي ما عرفت مليحة ولعشت بكرا لا يفك ازاري
لكنني أبغي وليدا ثائرا فلربما اخذ الوليد بثاري (٢) .

وعلى غير خيار منا نكتفي بهذه النظرة العجلى نلقيها على هذه الملامح التي تعكس على هذا النحو او ذاك، مواقف الجرداق من المراة والخمرة والطبيعة. ثم نميل، في نهاية المطاف، الى تسجيل طائفة من الهوامش الاخرى التي نزعم انها تساعد على استجلاء المزيد من ابعاد الصورة لشاعرنا العاملي .

فحول اثاره الادبية والعلمية ثمة تضارب عجيب في الاراء فمن قائل بأن ما نشر للجرداق لا يتعدى النزر اليسير مما انتج في هذه الحقول ومن قائل خلاف ذلك تماما ثم ان الجرداق نفسه اوقعنا في حيرة من امرنا بشأن انتاجه ذاك فهو بالذات يكتب على الغلاف الاخير من «المنعشات» في ما يشبه الاعلان :

«الهواجس، وهو مجموعة ما قرضه صاحب هذه «المنعشات» من سنة ١٩٢٧ ــ ١٩٣٠ من الهواجس . والهواجس عبارة عن اراء ونظريات «لشاعر المرج» في الكون والحياة والقوة والطبيعة، من فلسفة ودين واجتماع وسياسة وعلم وقد جعله ناظمه اربعة وعشرين قسما لكل منها مبحث في علم او فن خاص ولكل قسم مقدمة تتلوها النظريات النثرية والشعرية والمنعشات هي القسم الأول من الهواجس» .

ويأتي اليوم واحدنا فيبحث عن تلك الاقسام الاربعة والعشرين فلا يعثر منها على غير هذا القسم الوحيد «المنعشات» ذي القصائد العشر فقط المتساوية بعدد الابيات (عشرة ابيات في كل قصيدة). والمتشابهة من حيث الشكل (ثمانية ابيات من قافية واحدة وبيتان في الختام من قافية اخرى) لكأنها الاشكال الهندسية المتطابقة . هذا عدا الاهداء والمقدمة .

والجدير بالملاحظة هنا، ان مجموعة شعرية تحمل اسم «الهواجس»

---

(١) من مقابلة شخصية مع صديق الشاعر ابراهيم حرب .

(٢) «القلم الصريح» مرجعيون ٧ اذار ١٩٥٧ .

صدرت للشاعر بعد وفاته بتسع سنوات وبعد مرور اربع واربعين سنة على صدور «المنعشات» واذا ما انكببنا على قراءة هذه «الهواجس» في ضوء ما قرأنا للجرداق من شعر في الصحف والمجلات لخرجنا براي قاطع يقول : ان هذه المجموعة ليست غير مختارات قليلة من شعره الغزير وليس لنا الان ان نحكم على قيمة هذا الاختيار انما لنا الحق في ان نقول بان الكثير من قصائد هذه المجموعة جاء مجتزأ او مبتورا او مختزلا قياسا على الاصل .

وبرهانا على صحة هذا القول نقدم «السينية » المشهورة شاهدا بليغا. فالسينية في المجموعة، لا تعادل نصف حجمها في «صباح الخير»(١) مثلا اضف الى ذلك ان بعض القصائد قد اختزل الى رباعية واحدة فقط مثل رباعية «لغة الرصاص» او « كيف نثور» او «ترنو وتسمع» وغيرها فهي في الاصل قصائد بهذا الطول او ذاك .

ومهما يكن من امر فان «الهواجس» التي بين ايدينا اليوم تحتوي على ثلاثة اقسام: فالقسم الاول: من الرباعيات . والثاني : من السداسيات والثالث : متفرقات. ومن اسف فان محتويات هذه الاقسام جميعا جاءت خلوا من اي تاريخ كما جاءت المجموعة خلوا من مقدمة او توضيح يساعدنا على قراءة الشاعر بصورة افضل .

وفي صدد الحديث عن الاشكال الجديدة التي اخذتها بعض القصائد فبوسعي القول ان الجرداق نفسه كان كثير التردد على قصائده لاعادة النظر فيها واعمال الحذف او الاضافة او التقديم او التأخير سواء في مبانيها او المعاني .

وقد تحصل لدي هذا الراي بنتيجة المقارنات التي عقدتها بين القصائد المنشورة والمعاد نشرها في تواريخ مختلفة او في صحف مختلفة وعلاوة على ما نشر من اثار الجرداق فثمة في حوزة ابنه «وسام» ثلاث مخطوطات او ما يشبه المخطوطات: واحدة وهي المهمة، تتضمن طائفة كبيرة من رباعياته موزعة على اناشيد وفقا لموضوعاتها المتنوعة . المخطوطة الثانية عبارة عن مخطط مفصل لدراسة علمية عن الخيل بعنوان : «الخيل العراب» والمخطوطة الثالثة لا تتعدى كونها بحثا مختصرا في بعض وجوه الفلسفة وضعه تحت عنوان «علم وفلسفة نظرات وملاحظات» .

يبقى علينا ان نعتذر من الجرداق ومنكم جميعا فقد حرمنا ضيق

---

(١) المرجع السابق .

المجال من الوقوف عند معالم من شخصيته ذات فرادة ، فقد كان ، باجماع الاصحاب والمعارف، واحدا من سادة المنابر والمجالس الموهوبين حضورا في البديهة وطلاقة في اللسان وقوة في الحجة الى سخرية لاذعة وظرف ساحر كان حديث الناس ولعله من المفيد ان نروي واحدة من طرائفه كما جاءت في «القلم الصريح» على سبيل المثال :

«دعي الاستاذ جرداق لالقاء محاضرة في احدى النوادي وكان مرتديا ثوبا خلقا ومنتعلا حذاء سملا فكلمه احد اصدقائه بذلك .. فانتفض قائلا : انني احافظ على كرامة هذا اللباس لانه يتحلى بصفتين من صفات الله وهما القدم والوحدانية ثم انشد :

غدر الزمان وشدة الافلاس   تركا ردائي باليا ولباسي
فلكم نظمت قصيدة رنانة   ما ابتعت طربوشا بها للراس
ولكم سكبت من النضار مقالة   غراء لا تشري عتيق مداس

★ ★ ★

وبعد، فتلك هي صورة شاعر المرج المهندس الزراعي فؤاد سجعان جرداق بملامحها المسيطرة ليس غير. ولعلنا في هذه المحاولة الاولى، المحكومة بحدود المناسبة الموقوتة وندرة المراجع والمستندات، نفتح ثغرة في هذا الحصار القائم حول شاعرنا الفذ. فلشد ما يعذب الوجدان ان نقعد، تقصيرا او قصورا عن الوفاء لهذا الوجه الثقافي الرائد في جنوبنا اللبناني بل في لبنان كله هذا الحمى الذي اعطاه الجرداق اليراع وزهرة العمر من غير ان يأخذ منه سوى العذاب والشقاء .

ما زلت ادفع باليراع عن الحمى   ظلم الطغاة وصولة الاعداء
في موطن منه مكافأتي الاذى   والسجن اجرى والشقاء جزائي

رغم ذلك فقد بقي شامخا في وجه المحن يتحدى انيابها بكبرياء وعنفوان :

ما ضرني هر الكلاب وما وهت   يوم النضال عزيمتي وجهادي
فتهيج في وقع الكروب جلادتي   ويزيد في قرع الخطوب عنادي

ثم هو، اخيرا، ذلك الزند المتاجج ابدا في الثورة التي عاش لها:

عشت للثورة الفتية زندا   تصطلي بي لا شاعرا مداحا
كلما اخمد الطغاة لظاها   اوجدت في واريا قداحا

هذا الكتاب

هذا الكتاب مرصود لوجه الجنوب في عطائه الثقافي فثمة سبع دراسات عن سبعة من وجوه الأدب والفكر ممن إستضاءت بهم سماء الجنوب في العقود الماضية ونمت ثروته الأدبية والفكرية بنتائجهم الخصب المتنوع...

وجوه ثقافية أسهمت على هذا النحو أو ذاك في صنع وإغناء الحركة الأدبية والفكرية داخل جبل عامل وخارج حدوده في تلك الحقبة المضطربة من تاريخنا الحديث...

الوجوه الثقافية التي تتناولها هذه الدراسات هي: محمد شرارة، الشيخ أحمد رضا، الشيخ أحمد عارف الزين، الشيخ سليمان ظاهر، محمد جابر آل صفا الشاعر عبد المطلب أمين، فؤاد جرداق.

وقدم الدراسات الأساتذة: د. حسين مروة، عبد اللطيف شرارة، شفيق الأرناؤوط، د. أحمد أبو ملحم، د. محمد مخزوم، محمد علي مقلد، حبيب صادق.

« الناشر »

الثمن ١٢ ل.ل. اوما يعادلها